ملخص:

احتل أدب الرحلة مكانة بارزة في الأدب العربي على مرّ العصور، وقد تمايز عن غيره من الفنون الكتابية الأخرى، ونظرا لانفتاح العالم في العصر الحديث، اتخذ أدب الرحلة صورة جديدة، تمثلت في الاستطلاعات الصحفية، وقد احتلت مجلة العربي الكويتية منذ تأسيسها عام ١٩٥٨ مكانة بارزة في كتابة الاستطلاع الصحفي، الذي يُعد تصويرا أمينا لكل بلد مزار، ومحاولة رصد مظاهر الحضارة فيه، وبيئته الجغرافية، ومؤثراتها، وعادات وتقاليد شعبه ومعتقداتهم.

بعض هذه الاستطلاعات كُتبت بأسلوب أدبي بليغ ينم عن حس أدبي عال للكاتب، ويأتي محمد بن سيف الرحبي ضمن الكتاب الذين تصدوا لتحبير صفحات هذا الباب بالمجلة، فخلف العديد من الاستطلاعات التي تضم بين جنباتها لوحات فنية أدبية، تشي بقدرة الكاتب على الإبداع، كما أنها تبرهن على تقنياته الكتابية الأخرى.

الكلمات المفتاحية: الصورولوجيا – أدب الرحلة – الاستطلاع الصحفي – محمد بن سيف الرحبي – مجلة العربي.

Abstract:

Travel literature has held a prominent position in Arabic literature throughout the ages, distinguishing itself from other literary genres. With the increasing open-up and globalization of the modern world, travel literature has taken on a new form represented in journalistic surveys or travelogue. Since its founding in 1958, *Al-Arabi* magazine has assumed a leading role in producing journalistic surveys, which provide a faithful depiction of each visited country. These surveys or travelogues seek to document various aspects of the visited country, including its civilization, its geographical environment, and its cultural influences a well as its people's traditions, conventions, and beliefs. Some of these surveys are written in an eloquent literary style that reflects a refined literary sensibility. Among the prominent contributors to this genre is Muhammad bin Saif Al-Rahbi, who has enriched the pages of this section of the magazine with numerous travelogues that blend artistic and literary portraits, revealing the author's creative abilities and showcasing his mastery of various writing techniques.

Keywords: Imagology, Travel literature, Journalistic surveys, Travelogues, Muhammad bin Saif Al-Rahbi, *Al-Arabi* magazine.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد استجاب الإنسان للتنقل والترحال على مر العصور، لما جبل عليه من نزعة فطرية تتمثل في السير في رحاب الأرض؛ لتوفير الرزق وأسباب الحياة، والعرب تحديدًا تعدّدت رحلاتهم على مدار العام، ولعل أبرزها رحلة الشام، ورحلة اليمن، والتي عرفتا برحلتي الشتاء والصيف، وانتقل العربي بعد ذلك في أرجاء الجزيرة؛ بحثا عن الكلأ والماء، فسكن الديار وهجرها، ولعل البكاء على الأطلال الذي ظهر في مطالع القصائد الجاهلية، ما هو إلا استجابة لما تهيجه ذكرى الأماكن، وذكرى من سكن بها.

وبعد ظهور الإسلام أخذت الرحلات منحى آخر، إذ كان الهدف من معظمها هو نشر تعاليم الدين الإسلامي، واستمرت الرحلات على مدار العصور رغبة في الفتوحات الإسلامية، أو طلبا للعلم ومدارسته، أو لإقامة شعائر الحج والعمرة، وقد لمعت بعض الأسماء التي ارتبطت بالرحلات على اختلاف أنواعها وعلاتها: كابن بطوطة، وابن جبير، وابن فضلان.

وفي العصر الحديث اتخذت الرحلات أهدافا أخرى بجانب طلب العلم، والدعوة إلى سبيل الله والحج، إذ ظهرت الرحلات التي ترنو إلى الترويح عن النفس، واستكشاف المدن البعيدة. وقد اضطلعت بعض الصحف والمجلات برصد هذه الرحلات ومتابعتها، بل وتكليف بعض الأشخاص للقيام بها.

من هذه المجلات: مجلة العربي التي تميزت منذ عددها الأول بباب الاستطلاع، الذي يُعد تصويرا أمينا لكل بلد مزار، ومحاولة رصد مظاهر الحضارة فيه، وبيئته الجغرافية، ومؤثراتها، وعادات وتقاليد شعبه ومعتقداته.

وقد كُتبت بعض هذه الاستطلاعات بأسلوب أدبي بليغ، ينُمُّ عن حس أدبي عالٍ للكاتب، ويأتي محمد بن سيف الرحبي ضمن الكتاب الذين تصدوا لتحبير صفحات هذا الباب بالمجلة، فخلَّف العديد من الاستطلاعات التي تضم بين جنباتها لوحات فنية أدبية، تشي بقدرة الكاتب على الإبداع كما أنها تبرهن على تقنياته الكتابية الأخرى.

لذا جاء هذا البحث بعنوان: (الصورولوجيا وآليات كتابة النص الرحلي في استطلاعات محمد بن سيف الرحبي بمجلة العربي)، حيث لم أجد- فيما أعلم- من خص استطلاعات الرحبي بالبحث والدراسة، في محاولة أولى لإبراز جانب من جوانب أسلوب الرحبي، وبيان تطور أدب الرحلة إلى الاستطلاع في العصر الحديث، ومحاولة أحرى لوضوح إشكالية مدى توفيق الرحبي في تصوير الآخر، ورصده لبعض الأنساق والأطر الخاصة لبعض الشعوب في صورة فنية رائعة.

ولم نعدم بعضًا من الدراسات السابقة التي أفاد منها البحث، كبحث: الصورولوجيا وأدبية الرحلة في الأدب العربي المعاصر: رحلة الأديب المصري الرحالة (محمد المخزنجي) إلى الهند أنموذجًا، عبد الغني البراء صفوان، وهو: بحث نشر بمجلة كيرالا، وهو عن استطلاعات المخزنجي التي أودعها مجلة العربي، عن رحلته للهند، وقد أفدت منه في معرفة أبعاد وتخوم الصورولوجيا، كما أنه أفادني في تقسيم بحثي هذا.

وبحث: الصورولوجيا وإشكالية التمثلات الأدبية، عبد الرحمن بوعلي، وهو بحث نشر بمجلة دراسات وأبحاث، وقد أفدت منه في معرفة مجال الصورة، والكيفية التي يكون عليها شعب في لحظة معينة.

وبحث: دراسة الصورة في الأدب المقارن، زهرة مزوني، وهو بحث نشر بمجلة الباحث، وقد أفدت منه في معرفة أقسام صور الشعوب، وعناصرها.

أما المنهج المتبع في هذا البحث:

فقد اعتمدت في دراستي المنهج الثقافي، حيث جمعت استطلاعات الرحبي، بمجلة العربي، وصنفت هذه الاستطلاعات حسب ما اشتملت عليه من مظاهر أدبية وفنية، من خلال رصده لبعض الأنساق الثقافية عند بعض المجتمعات.

وقد انتهج البحث لتحقيق أهدافه خطة تمثلت في تقسيمه إلى: مقدمة وتمهيد ومبحثين ثم الخاتمة.

أما المقدمة: ففيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وخطة البحث، ومنهجه.

وأما التمهيد: فعنوانه: بين الكاتب والاستطلاع.. إشارات وإلماحات، وفيه عنصران:

أولا: محمد بن سيف الرحبي في سطور.

ثانيا: بين أدب الرحلة والاستطلاع الصحفي.

المبحث الأول: الصورولوجيا في استطلاعات محمد بن سيف الرحبي بمجلة العربي.

المطلب الأول: البيئة الجغرافية.

أولا: المكان جغرافيًّا.

ثانيا: تصوير معالم بعض المدن.

المطلب الثاني: مؤثرات البيئة الإنسانية.

أولا: الإنسان بين طبول الحرب وأناشيد السلام.

ثانيا: المعتقدات الدينية، ومدى رحابة قبول الآخر.

ثالثا: عادات وتقاليد، ويتضمن:

١- عادات بعض الشعوب. ٢- الاحتفالات والأعياد.

٣- حرف وزراعات. ٤- عادات غذائية ومأكولات.

المبحث الثاني: آليات كتابة النص الرحلي في استطلاعات محمد بن سيف الرحبي بمجلة العربي.

المطلب الأول: العتبات.

أولا: عناوين الاستطلاعات.

ثانيا: المقدمات.

المطلب الثاني: البناء والخصوصية.

أولا: السرد، ويتضمن: ١- محكيات سردية داخلية تضيء أنا الراوي.

٢- محكيات سردية أسطورية. ٣- محكيات سردية تاريخية.

١- محكيات سردية عن اليوم.

ثانيا: الوصف، ويتضمن: ١- الوصف الذاتي (الداخلي).

٢- الوصف الموضوعي (الخارجي) ويشتمل على:

أ- وصف الزمان. ب- وصف المكان. جـ- وصف المشهد.

الخاتمة: وتتضمن أهم ماتوصل إليه البحث من نتائج.

ثم فهرس المصادر والمراجع. وفهرس المحتويات.

وأخيرًا.. فلست أزعم أن هذا البحث كامل من كل الوجوه؛ إذ الكمال لله وحده.. وآخر دعائي: أن الحمد لله رب العالمين.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم،

التمهيد

بين الكاتب والاستطلاع.. إشارات وإلماحات

أولا: محمد بن سيف الرحبي في سطور:

في الثاني عشر من أبريل عام ألف وتسعمائة وسبع وستين، تأهبت قرية سرور بولاية سمائل بعمان لاستقبال مولود جديد، هو محمد بن سيف بن سالم الرحبي، لم تكن تعلم هذه القرية أن مولودها سيكون له باع في الأدب، أو حظ في الترحال، فخطا هذا المولود أولى خطواته بالقرية ليعيش طفولة صعبة كباقي أقرانه؛ إذ خلت القرية من أساليب الحياة الحديثة المتعارف عليها اليوم، ويلتحق الرحبي بالصف الأول الابتدائي في مدرسة بقريته، يبنيها بنفسه مع باقي أقرانه من الخيام(١)، ويصعد أولى درجات السلم التعليمي على يد معلم من صعيد مصر، ويظل يتدرج في هذا الدرب إلى أن يحصل على شهادة ليسانس اللغة العربية من جامعة بيروت العربية، ولايكتفي بهذا القدر بل يسعى إلى الحصول على دبلوم الدراسات العليا من معهد البحوث للدراسات العربية بالقاهرة.

ويبدأ حياته العملية بالعمل في جريدة عمان في عام ألف وتسعمائة وسبع وثمانين، ويظل يعمل بها قرابة واحد وعشرين عاما متدَّرجا في الأقسام الفنية والتحريرية بها، إلى أن يصل إلى مدير تحرير في عام ألفين وخمسة، ليصل بعدها إلى البلاط السلطاني كخبير إعلامي بمكتب وزير ديوان البلاط السلطاني؛ إذ كانت لديه تجربة صحفية بارزة، وإلى جانب الصحافة وكتابة الأعمدة اليومية بها يتطلع إلى الإبداع الأدبي، ليرتاد منادح الرواية والقصة والمسرحية، فتتنوع إبداعاته ما بين الرواية مثل: رحلة أبو زيد العماني، والخشت، والسيد مرَّ من هنا، والشويرة، واسمها هند، وحيتان شريفة، والرجل الرابع.

والقصة مثل: بوابات المدينة، ما قالته الريح، أغشية الرمل، وقال الحاوي.

والمسرحية مثل: مرثية وحش، سعادة المدير العام، السهم، أمنيات الحلم الأخيرة،

---

(١) ينظر: بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر كل الطرق تؤدي إلى مصر، الرحبي، مجلة العربي، ع ٧٤٥، ديسمبر ٢٠٢٠، ص٦٣ – ٦٤.

واالإصلاحاه، ممنوع من النشر، إنسان استراتيجي.

وأما عن حبه للترحال والتجوال فقد نشأ معه منذ نعومة أظفاره، إذ يقول في أحد اللقاءات التليفزيونية: «منذ أن ولدت وأنا أستكشف المكان االعماني، أعيش بحالة دهشة مع هذا المكان في داخل القرية، وعندما اكتشفت المدينة كأنني اكتشفت قارة أخرى كنت ألجأ إليها»(١)، ولم ترض شغفه في الاستكشاف تلك الزيارات إلى المدينة، بالرغم من رحابة عالمها مقارنة بعالم قريته، ولكنه كان يزورها وهو على يقين تام بأن هناك سماء أخرى لم يستكشفها بعد.

وعن أثر ذلك في كتاباته يقول: «بعدما اكتشفت السفر، صرت مفتونًا بالمكان أكثر، أبحث عن المختلف، فأنت لا تعيش المألوف عندما تحلّق من أرض إلى أخرى مختلفة في التفاصيل والشوارع والوجوه»(٢).

ولم يقف اكتشاف السفر عند حد الفتنة بالأماكن، ولكنه قرر ترجمة ذلك في كتاباته عن المدن التي زارها، فخلف العديد من الأعمال التي تتحدث عن المكان مثل: حكايا المدن: كتابة أولية لسيرة عشر مدن عمانية، شذى الأمكنة، بوح سلمى.. سيرة مكان، على حين سفر، هذا إلى جانب العديد من الاستطلاعات الصحفية عن مدن زارها.

وقد نال العديد من الجوائز منها: جائزة النادي الثقافي للإبداع القصصي، وجائزة الشارقة للإبداع العربي، وجائزة جمعية الكتاب العمانيين(٣).

ثانيا: بين أدب الرحلة والاستطلاع الصحفي:

مع انتقال الإنسان من موقع إلى آخر، ومع زياراته المتعددة للمدن والأماكن، تحدث له بعض المواقف، وتصدر عنه بعض الأفعال، ويصادف العديد من المشاهد والأشخاص، كل ذلك يثري تجربته، وقد يشحذ أوار فكره، فيزمع على تسجيل هذه

---

(١) من حوار للكاتب على قناة النيل الثقافية.

(٢) السابق.

(٣) ينظر المواقع الآتية: ويكيبديا (https://ar.wikipedia.org/wiki/)، وجائزة كتارا للرواية العربية (https://kataranovels.com/novelist/)، والتبراة (https://altibrah.ae/author/1859).

التجارب في بنية كتابية يستطيع من خلالها أن«يختزل تجربة الفعل السابق، ويدونها في شكل سرود بضمير المتكلم»(١).

مما أثمر لدينا العديد من الكتابات التي ضمت بين جنباتها شيات أدبية، ومناح تعريفية مختلفة في التاريخ أو الجغرافيا أو الاجتماع، وقد عُرفت باسم أدب الرحلة و«هو مجموعة الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرض لوصف مايراه من عادات وسلوك وأخلاق، أو تسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التي يشاهدها، أو يسرد رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع كل هذا في آن واحد»(٢).

وجنس كتابي يضم بين جنباته هذه الأشياء، لا بدّ وأن يختلف عن غيره من الأجناس الكتابية الأخرى، فهو يشاكل غيره من الفنون النثرية كالرواية والقصة مثلا في السرد والوصف، ولكنه يتمايز عنها باجتهاده في رصد الواقع دون رتوش خيالية.

وقد تعدّدت المؤلفات التي استقلت بتدوين الرحلات على مدار العصور المختلفة، وفي العصر الحديث نظرا لانفتاح العالم، وتطور السبل، ظهر أدب الرحلة بصورة جديدة في بعض الصحف والمجلات، أو البرامج التليفزيونية، وتعددت الاستطلاعات الصحفية التي تحمل عناوين الرحلات إلى أمكنة محددة ودول معينة.

والاستطلاع الصحفي: «بحث يقوم به كاتب أو أكثر يشتمل على تحقيق مكان، أو حادث بالوصف والتصوير»(٣).

ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نلمح بعض الوشائج التي تربط أدب الرحلة بالاستطلاع، خاصة إذا تحدث الاستطلاع عن مكان معين بالوصف والتصوير، وذلك لـ«كونهما ينقلان إلى فضاء التلقي حقائق الواقع والميدان من مشاهدات ومسموعات ومعايشات وأحداث وشخصيات حكائية فاعلة وغيرها، سجلها بنفسه الرحالة أو

---

(١) الرحلة في الأدب العربي(التجنيس_ آليات الكتابة_ خطاب المتخيل)، شعيب حليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، أبريل ٢٠٠٢م، ص ١٠٨.

(٢) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة_ كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص١٧.

(٣) المعجم الوسيط، مادة(ط ل ع).

الصحافي في منطقة ما»[١].

وعلى ذلك فالشبه كبير بينهما في المضمون والمحتوى، غير أن أدب الرحلة في الغالب يكون تدوينه رغبة من الكاتب نفسه، أما الاستطلاع فكاتبه مكلف من قِبَل هيئة معينة، أو مؤسسة خاصة بكتابته، بل وهذه الجهة قد تكون مسؤولة عن تحديد محل الزيارة[٢].

وقد احتلت مجلة العربي منذ تأسيسها عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسين مكانة بارزة في كتابة الاستطلاع الصحفي، حتى صارت استطلاعتها رمزا لأدب الرحلة العربية المعاصرة، وقد سُطرت هذه الاستطلاعات بقلم العديد من كتاب الوطن العربي، وشفعت بصور فوتوغرافية تكاد تحدث القارئ بما يكتبه الكاتب، نظرا لجودتها ودقتها، فتضافرت بذلك مع النص المكتوب لتقريب البلاد البعيدة إلى المتلقي، وقد ضمت هذه الاستطلاعات ألوانًا شتى من الأساليب، تفاوتت من كاتب إلى آخر، مما يتيح للباحث فرصة اختيار كاتب أو أكثر والوقوف معهم بالبحث والدراسة.

المبحث الأول

الصورولوجيا في استطلاعات محمد بن سيف الرحبي بمجلة العربي

تتركب الصورولوجيا من كلمتين هما: صورة، ولوجيا، أي علم الصورة.

والصورة لغة: «الشكل... وصورة الشيء: ماهيته المجردة، وخياله في الذهن أو العقل... وصوَّره جعل له صورة مجسمة، وفي التنزيل العزيز: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦]... وصوَّر الأمر: وصفه وصفًا يكشف عن جزئياته»[٣].

وفي الاصطلاح: «الصورولوجيا هو ما اصطُلح على تسميته بعلم الصورة، أو ما عرفته الترجمات بالصورية، التي تعنى بما يصوره الأدب في نتاجاته من الثقافات

(١) السرد الرحلي من أدب الرحلة إلى الاستطلاع الصحفي، خليفة قعيد، جامعة الوادي، مج ٧، ع ١، ٢٠١٢م، ص٢٦١.

(٢) ينظر: السابق ص ٢٥٦.

(٣) المعجم الوسيط مادة(ص و ر).

والمجتمعات في لحظة اتصالية ما»[١].

ومن خلال المعنى اللغوي، والمعنى الاصطلاحي، يمكن قول إن الصورولوجيا: هي دراسة تأثير البيئة والمكان على الإنسان، فمن خلالها نستطيع التعرف على طموحات الإنسان وقناعاته، دينه ومعتقداته، عاداته وتقاليده، وعبر هذه النقاط نستطيع تكوين فكرة عن الآخر.

وعلى ذلك فهي تدخل ضمن مباحث الأدب المقارن، إذ إنها ممارسة إنسانية تتيح للدارس رؤية الشعوب الأخرى، ومقارنتها بذاته أو بشعبه.

وترجع بدايات هذا العلم «إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما قامت الأديبة الفرنسية مدام دوستال في عام ١٨١١م بزيارة لألمانيا في وقت تصاعد فيه العداء وسوء الفهم بين الشعبين الفرنسي والألماني»[٢]، وكانت لهذه الزيارة وللكتاب الذي ألفته الأديبة أكبر الأثر في تصحيح صورة الشعب الألماني لدى الشعب الفرنسي.

ولاشك أن الرحلات تشكل رافدا مهما من روافد الصورولوجيا، بيد أن ما يشغل البحث هو فنية الصورة المنقولة، أو أدبيتها وقد اشتملت استطلاعات الرحبي على لوحات أدبية تتلاقى مع علم الصورولوجيا، ويمكن تقسيم استطلاعات الرحبي إلى مطلبين: المطلب الأول: البيئة الجغرافية، المطلب الثاني: مؤثرات البيئة الإنسانية.

المطلب الأول: البيئة الجغرافية:

أولاً: الموقع والمساحة:

احتضنت استطلاعات الرحبي الكثير من الإشارات الجغرافية، التي تتعلق بتحديد موقع وطبيعة البلد المزار جغرافيا، من حيث ما يوجد به من تضاريس كجبال، أو أنهار، أو بحار، أو صحارى، كما أنها تزخر بأوصاف عديدة لبعض المعالم الحضارية في البلاد التي زارها كالقلاع والحصون، والمساجد، والأبنية العامة.

---

(١) الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، نوافل يونس الحمداني، مجلة ديالي، ع ٥٥، ٢٠٢٠ -٢٠٢١، ص ١.

(٢) دراسة الصورة في الأدب المقارن، زهرة مزوني، مجلة الباحث، مج ٨، ع ١٦، ٢٠١٦، ص ٧٧-٧٨.

فحينما حاول الكاتب رصد الموقع الجغرافي لفيتنام، نجده يحدد هذا الموقع تحديدا تاما، حيث يقول- تحت عنوان(على حواف الجغرافيا)-: «شعرت أن فيتنام بعيدة جدا في الجغرافيا، كما كانت في ذهني وأنا أتخيلها عن بُعد، فعلى الخريطة تقع هذه البلاد في جنوب شرق القارة الآسيوية، وعلى شمالها الصين، وغربا لاوس وتايلند وكمبوديا، وتمتد على نحو ٣٣١ ألف كيلو متر مربع»[١]، ففي هذه القطعة يوضح الرحبي مدى إحساسه ببعد فيتنام عن العالم العربي، كما وقر في ذهنه وخاصة عن بلده عمان؛ إذ تبعد عنه بما يربو على ستة آلاف كيلو متر، ثم ذكر بدقة حدودها الشمالية والغربية ومساحتها الفعلية.

ونجده يصور موقع البوسنة الجغرافي في استطلاعه عنها فيقول:«تتكئ دولة البوسنة والهرسك على زاوية صغيرة في القارة العجوز.. فيما اختارت لها الجغرافيا دولة صربيا لتحدها من الشرق، أما الغرب فهناك دولة الجبل الأسود، وليس لها من ساحل على البحر الأدرياتيكي إلا نحو ٢٦كم، ومع ذلك فهي ثرية جماليا بما يغنيها عن سواحل كل البحار»[٢].

كما أنه عند حديثه عن ألبانيا أخذ يرصد كل ما يحيط بها بدقة، بل عدَّد أيضا ما تضمه من جبال بداخلها، فيقول: «هذه إذن ألبانيا، الواقعة جنوب شرق أوروربا على شمالها الغربي كوسوفو، وشرقها مقدونيا، وجهة الجنوب تقع جارتها اليونان وتطل على بحرين الأدرياتيكي والأيوني. بلد من جبال وتلال، تحتل غالبية مساحته البالغة ما يقارب ٢٩ ألف كم مربع الواقعة غرب البلقان، على شماله جبال الألب الألبانية، وفي جنوبه هناك جبال شار، وتحتل جبال سكاندير برنج الوسط، وكوارب الشرق، وفي جنوبه الشرقي جبال بيندوس، وعلى الجنوب الغربي جبال سيراونيان، وبقيت السهول تلك القريبة من سواحل بحريها وهناك تمتد ثاني أكبر بحيرة في جنوب أوربا، بين الألب والأدرياتيكي»[٣].

---

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، مجلة العربي، ع ٧٣٩، يونيو ٢٠٢٠م، ص ٣٨.

(٢) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، مجلة العربي، ع ٧٥٧، ديسمبر ٢٠٢١م، ص ٣٨.

(٣) ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، مجلة العربي، ع ٧٦٦، سبتمبر ٢٠٢٢م، ص ٤٤.

ثانيا: تصوير معالم بعض المدن:

حرص الرحبي على رصد المعالم التي مرَّ عليها في المدن التي زارها رصدًا يعتمد على الوصف والتصوير؛ لينقل للقارئ جمال الأماكن المزارة والسحر الذي وقر في نفسه جراء رؤيته هذا الجمال، وقد تنوعت المعالم التي حاول وصفها أو تسليط الضوء عليها في استطلاعاته: ما بين معابد، وقصور، وقلاع ، ومساجد، أو حتى مقابر، كذلك لم يفته تصوير الطرق وجمال المدن.

فنجده يتحدث عن معابد الأقصر، وخاصة معبد الكرنك، موضحًا اعتناء المصري القديم بالحياة الآخرة فيقول: «إيمانهم الأخروي بقداسة حياة ما بعد الموت حيث العتمة الباهرة في باطن الأرض مضاءة بنقوش وأساطير وحكايات ونفائس، كأنما حائط المقبرة لوحة تشكيلية أو كتاب توثيقي، يرعى الراقد في تابوته الصخري، ريثما تعود الروح إليه متعرفة على صاحبها، فيستأنفان الرحلة من جديد»(١)، ثم يستطرد في وصف ممر الكباش بمعبد الكرنك قائلا: «كان طريق الكباش في معبد الكرنك يأخذنا في المسار، صفان من التماثيل، كل تمثال يحمل رأس كبش على جسد أسد، طوله ٥٢ مترا وعرضه ١٣ مترا، هؤلاء حراس المعبد.. من هنا مرت عروش وفيضانات وزلازل، وتساقط ما تساقط منها بفعل عوامل التعرية، ودوران الأفلاك عبر آلاف السنين، مدينة من المعابد الأكثر قدسية واختيارا عمرها أكثر من ألفي عام»(٢).

فمن خلال وصفه لهذه البقعة حاول نقل ما يعتريه من شعور بالجلال والمهابة، مع الاندهاش من اهتمام المصري القديم بنقوش جدران مقبرته، وممر الكباش الذي ظل وسيبقى شاهدا على تعاقب الأزمان، والتقاء الماضي بالحاضر.

وفي النمسا وصف الرحبي جنباتها الغناء وطبيعتها الساحرة، ولكنه حين وصف قصر شونبرون أكبر قصور النمسا لم يشغله حسن المكان وبهاء تصميمه بقدر ماشغله سحر من عبر المكان فيقول: «حينما جاء الوقت (وقت دخول القصر) كنا على حالة من الوجد التاريخي، ما هذه الفخامة الامبراطورية؟! كأنما ماريا تريزا مازالت تختال على

(١) من الأقصر إلى أسوان رحلة نيلية على مراكب الشمس، مجلة العربي، ع ٧٠٧، أكتوبر ٢٠١٧م، ص ٣٩.

(٢) السابق نفسه.

السجاد الذي اختارته ليزين قصرها مع اكتماله في عصرها عام ١٧٤٣م، وسريرها هناك يجمع الجمال والفخامة، وعطر الأنوثة المتبقي تاريخا على مناديل إمبراطورية تسيدت المشهد السياسي الأوربي في القرن السادس عشر، كل هذه الغرف ١٤٤١غرفة! كل منها تروي سيرة من عبروا في الزمن القيصري الذي كانت عليه النمسا»(١).

فهو لا يتمتع بالنظر إلى الجمال الحسي في القصر وحسب، ولكنه يحاول أن يعايش أصحاب المكان أو من مرَّ به، فيرى ماريا تريزا – تلك الإمبراطورة الشهيرة في التاريخ النمساوي– تتبختر على سجاد القصر، وترتع في جنباته، ويرى في ردهات القصر صورا لا حصر لها لمن مرَّ فيه، وخلد اسمه على جدرانه.

ويصور قلعة بهلاء العمانية تحت عنوان (صعود إلى القلعة) فيقول: «المبنى التاريخي الجالس على تلة صخرية للمكان، محفوفة بواحات النخيل، مبتهجة تبدو تحت شمس ربيعية تدفعنا إلى تحمل النبش في زواياها، بعين تحاول أن تستقري تاريخ أكبر وأقدم قلعة في عمان قدر المستطاع، فتاريخ بنائها يعود إلى الألف الثالثة قبل الميلاد مرتبطة بالحضارات القديمة، كتلك التي في بلاد فارس وما بين النهرين، لكن المصادر تشير إلى أنها بنيت على فترات مختلفة.. تجلس القلعة الحارسة بشكلها المثلث تقريبا، تسرق الأنظار إليها من كل حدب وصوب، لها وجهة جنوبية تبلغ مساحتها ١١٢ ونصف متر، في حين تصل الواجهة الشرقية إلى١١٤ مترا، أما السور الشمالي الغربي المقوس فيبلغ طوله ١٣٥ مترا، ويصل إلى برج الريح (أحد الأبراج بالقلعة)، وبالقلعة حوالي سبعة آبار وخمسة أبراج»(٢).

فباعتراف الرحبي نفسه نجده يحاول النبش في زوايا القلعة، علَّه يفلح في مقابلة تاريخها الحي، فحب الرحبي للأماكن دائمًا مقرون بحب من سكن الأماكن، فهو يحاول أنسنة المكان، أو بتعبير أدق معايشة من مرَّ في هذا المكان، ورَسْم بعض الملامح لشخصيته.

---

(١) النمسا تبتسم في ليالي الأنس، مجلة العربي، ع ٧١١، فبراير٢٠١٨م، ص ٦٦.

(٢) بهلاء العمانية شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، مجلة العربي، ع ٧٦٣، يونيو ٢٠٢٢م، ص٤٨، ٥١.

وحين حاول الرحبي وصف مساجد كوسوفو قرر إبهار القارئ بجمالها فقال: «في أغلب المساجد يشدنا المعمار، قطعة فنية من الخارج، ومساحات لونية تتجلى فيها جماليات الفنون في الداخل، كل زاوية تدعوك للتأمل كأنك أمام لوحات في معرض، وليس مكانا للعبادة فحسب... يوجد في كوسوفو ما يقارب الألف مسجد، بين قديم وحديث»(١).

فيحاول القارئ تخيل هذه المساجد بما تحويه من تكوينات جمالية تأخذ بالألباب.

ويصور لنا طريقه إلى مدينة الأهوار في العراق فيقول:«كان لا بد من السير إلى الأهوار.. وكان لابد من قارب يأخذنا إلى حيث يلتقي النهران، دجلة والفرات، كأنما كل قطرة تروي للأخرى من أين جاءت، وماذا رأت عبر مشوارها حتى التقت في هذه القرنة لتمضي بها مجاري النهرين إلى ضفاف أخرى، كمن عبر صحراء مقفرة وجدنا هذه الأهوار.. وكأنه لا حدود لآخرها، مساحة ممتدة عامرة بالماء والقصب والبردي والطيور، وغير ذلك من حيوات تستوطن هذا الفضاء الجميل.. وعلى مقربة لاح معمار يبدو غريبا في هذه المنطقة الطبيعية، فإذا به الصرح التذكاري لشهداء الأهوار، بناء لافت لكنه يحاكي الأموات في الخدمات الداخلية المفترضة به»(٢).

فهنا يحاول الرحبي أن يتحسس مشاعر الماء وأحاسيسه، فالوقت لا يسمح في هذا الموضع بذكر من عبر هذه المناطق، ولكنه يكفي ليترك للماء فضاء الحكي فربما يبوح بما لا تسعفه الذاكرة، ثم يوضح المفارقة حين وصوله للأهوار ذاك الفضاء المتراحب الأجواء، وما صادفه فيه من الصرح التذكاري لشهدائه، وربما لغرابته عن المكان بات شحيحا في موارده التي كان من المفترض أن يحققها للدولة.

---

(١) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدا باتجاه الحقول، مجلة العربي، ع ٧٦٩، ديسمبر ٢٠٢٢م، ص ٤٧.

(٢) الدنيا بصرة على شط العرب، مجلة العربي، ع ٧٧٣، أبريل ٢٠٢٣م، ص٦١، ٦٤.

المطلب الثاني: مؤثرات البيئة الإنسانية:

أولا: الإنسان بين طبول الحرب وأناشيد السلام:

أطلق الرحبي في استطلاعاته العنان لقلمه في الحديث عن أوقات الحرب، التي مرت ببعض المدن التي عبرها، فحاول أن يبوح بما تختزنه الذاكرة عن هذه الفترات الصعبة، ويقارن بينها وبين حال المكان قي وقت السلم، فيتحدث مثلا عن(براغ) أثناء اجتياح القوات السوفيتية لها قائلا: «في ربيع براغ المحسوب على أغسطس من عام ١٩٦٨اجتاحت قوات سوفيتية مدعومة بقوات من ثلاث بلدان تدور في الفلك الشيوعي (بولندا والمجر وبلغاريا) العاصمة التشيكية براغ، التي رأت في الحراك الإصلاحي للزعيم التشيكي الكسندر دوبتشيك خطرا يجب اجتثاثه في تربته الأولى بنحو ٢٠٠ ألف جندي .. فقُتِل خلال اجتياح براغ ١٣٧ مدنيا، وبقيت الهيمنة السوفيتية مستمرة حتى ثورتها المخملية ، التي استفادت من تداعي القطب الشيوعي، حينها تنفست براغ حريتها، وخلعت العلم الأحمر عن هويتها»(١).

فقد وضح في هذه اللمحة السريعة سبب اجتياح الاتحاد السوفيتي لبراغ، وعدد الجنود التي داهمت هذه المدينة، وما خلفه هذا الاجتياح من ضحايا.

وعلى بُعد عدة صفحات من هذا السرد يحاول الرحبي وصف المدينة اليوم بعيدًا عن ويلات الحرب فيقول: «يحق لبراغ الاعتداد بأنها من أجمل مدن العالم، العاصمة القادرة على أن تكون مركزا جماليا يليق بفاتنة أوربية، أخذت من الشرق بعضا منه.. مدينة عبرتها جحافل السياح لتستعيد حياتها بعيدا عن الذكريات المؤلمة لصور عبور جحافل الجيوش، عبرها النازيون والشيوعيون وغيرهم، لكنها بقيت تحتفظ بذكرى من مروا في أزمنة الحرب؛ لتعرضها على الزوار الذين يأتون في فسحات السلام.. المباني القديمة المطلة بأناقة، لم ينل منها الزمن، بل وضع عليها بصمته الأثيرة، بحيث يلتقي بهاء الجمال بعمق التاريخ، بنايات من الفنون المعمارية المختلفة»(٢).

فبالرغم من ويلات الحرب التي لاقتها براغ، عاصمة التشيك إلا أنها استطاعت

(١) براغ أم كل المدن ذات الأبراج الحادة، مجلة العربي، ع ٧٣٧، أبريل ٢٠٢٠م،ص ٣٩.
(٢) السابق ص ٤٥.

الاحتفاظ بجمالها الذي جذب السياح إليها ليعبروها مستمتعين هذه المرة بعيدًا عن جحافل الجيوش!!

وفي حديثه عن فيتنام أشار في مقدمة الاستطلاع إلى حرب أمريكا عليها في ١٩٧٥م، وبدأ استطلاعه بقوله: «استعدت ذلك التاريخ من سنوات الحرب الثماني؛ لأجد أن فيتنام قدمت مليونين من القتلى وثلاثة ملايين جريح عدا ١٢ مليونا من اللاجئين»(١).

أعداد كبيرة من القتلى والجرحى يصدم بها الرحبي القارئ، لكنه ما يلبث أن يوضح حال فيتنام اليوم، فيقول: «لم يبق من روائح البارود شئ، خسر الأمريكيون المعركة، وخسرها اليابانيون بعد أن استسلموا في نهاية الحرب العالمية عام ١٩٤٥، حيث أعلنت استقلالها في الثاني من سبتمبر من عام ١٩٥٤، مودعة آخر المستعمرين الفرنسيين، فتلك فيتنام التي تستيقظ على حياة جديدة»(٢).

إنها حياة جديدة تفتتح أحلامها، وتحاول توطيد مكانتها السياحية، بعد نجاحها في الإفلات من بين أنياب الحرب.

وفي حديثه عن البوسنة يبدأ الاستطلاع بقوله: «نقشت البوسنة أثرها في أذهاننا كساحة حرب، وبصور آلاف الجثث المتراكمة في مقابر جماعية، ومذابح تتوالى، تطل من خلف نشرات الأخبار، تتلو علينا سورة الموت، وهي تتلوى في الخاصرة الجنوبية للقارة العجوز، وترفع تكبيرات الآذان في قارة متخمة بأجراس الكنائس»(٣).

صورة قاتمة لحرب ضروس لاقت البوسنة ويلاتها كثيرا، لكنها تعافت من تلك الحرب دون أن تنسى، فتقف بعض بنايات المدينة شاهدة على هذه الحرب، حيث لازالت جدرانها تتعذب من جراء اختراق الرصاص والقذائف، وبالرغم من كل ذلك تحاول تلك البلدة أن ترمم ذاكرتها على حد تعبير الرحبي، وأن تنهض من جديد، ولوصف واقعها اليوم يقول: «لكنها استطاعت أن تبدل صور بياض الأكفان باخضرار العملات في أكف السياح، وهم يسيرون بأفواج متتالية بين جبالها الخضراء، ومياهها المتدفقة بردا

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٣٨.

(٢) السابق نفسه.

(٣) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٣٨.

وسلاما وأن تكتشف لغة جديدة لولادتها المستجدة، فتفتح ذراعيها للغة العربية، خاصة تلك الناطقة باللسان الخليجي المبين، ممن وجدوا بغيتهم الجمالية في هذه البقعة الأوربية المتدثرة بعباءة إسلامية»(١).

فقد أصبحت هذه المدينة الباذخة الجمال قبلة للسياح من كل صوب، وخاصة الخليج العربي الذي يفضل سكانه الارتحال إليها؛ لكونها بلدة إسلامية تتمتع بنسائم أوربية تقيهم من ارتفاع درجات الحرارة في بلدانهم.

ثانيا: المعتقدات الدينية ومدى رحابة قبول الآخر:

حرص الرحبي على تجميع المعلومات الممكنة عن المدن التي زارها؛ حتى يستطيع أن يكتشف المدينة بيسر وسهولة، وقد عبر عن ذلك في أحد استطلاعاته قائلا: «إذا لم تقرأ المدينة قبل أن تلتقيها، ففرصتك في اكتشافها تبقى محدودة»(٢).

ومن المعلومات التي أبدى الرحبي حرصه على معرفتها، وسطرها في رحلاته، هي المعتقدات الدينية لكل بلد زاره، خاصة لو كان بلدًا أوربيًّا لا يرد على مسامع القارئ العربي كثيرًا، أما البلدان العربية فكلنا يعلم الدين السائد فيها.

فنراه يتحدث عن براغ قائلا: «ورغم ما يمكن رؤيته من كنائس، فإن معلومة تشير إلى أن نحو ٥٩% من السكان رسميا بلا ديانة»(٣).

فالكنائس كثيرة في براغ، مما يوهم السائح بأن الديانة الرسمية لها هي المسيحية، لكن معلومات الرحبي تؤكد عكس ذلك، إذ ما يربو عن نصف سكانها بقليل لا دين له.

وعن فيتنام يقول: «وكانت مفاجئة لي شخصيا أن عدد سكانها يتجاوز المئة مليون نسمة، والأغرب أن أكثر من ٨ في المئة من سكانها لا دين لهم، مع أني كنت أظن أن النسبة الأكبر تميل للبوذية، إلا أنها لا تشكل إلا أقل من ٧ في المئة، وأقل من ١ في المئة من ساكنيها مسلمون، لكن السفر اكتشاف حقيقي، خاصة لتلك البلدان البعيدة، القادمة من التاريخ ونشرات الأخبار أكثر مما عليه صورة الواقع والحقائق

(١) السابق نفسه.

(٢) براغ أم كل المدن ذات الأبراج الحادة، ص ٥١.

(٣) السلبق، ص ٤١.

الحاضرة»[١]، فقد تملكته الدهشة إثر معرفته هذه المعلومات؛ ليوضح هنا أهمية الترحال لاكتشاف الحقائق، فالقراءة وحدها في التاريخ لاتكفي لنقل الحقيقة، لكن السفر اكتشاف حقيقي على حد تعبيره.

ويتحدث عن البوسنة وانفصالها عن يوغسلافيا قائلا: «خرجت من رحم البلد الأم بعملية قيصرية؛ فتصبح البلد المسلم الوحيد في قارة تعتقد أنها بقيت مخلصة لما جاء به المسيح، مهما استعمرت وقتلت ونهبت. ولدت البوسنة كبلد مستقل بعد حرب دامية في جيب صغير تحفه الجبال، وتتمدد داخله.. فيما يتوزع سكانها الذين لم يبلغوا الملايين الأربعة على أغلبية مسلمة، وأقلية تقاسمها الكاثوليكية والأرثوذوكية المسيحيتين»[٢]، فبعد إطلالة تاريخية سريعة عما عانته البوسنة لتحصل على استقلالها، يوضح الهوية الدينية لشعبها وإن كان الطبعي أن تكون دولة مسلمة، وإلا ما ذاقت ويلات الحرب، فغالبية سكانها من المسلمين إلا أنهم أقلية في وسط القارة الأوربية.

ويوضح للقارئ الديانة السائدة في ألبانيا بعد خروجها من ربقة الشيوعيين، فيقول: «وبعد سقوط الحقبة الشيوعية عاد السكان لممارسة شعائرهم، حيث ارتفع الأذان من جديد، ونسبة عدد المسلمين ٧٠ في المئة، وأزيل الصدأ عن أجراس الكنائس، حيث تتوزع النسبة الباقية بين الأرثوذكس كأكثرية والكاثوليك بنسبة أقل، وتتباين النسب بين مصادر وأخرى، حيث يشير بعضها إلى أن عدد المسلمين ليس أكثر من نصف عدد السكان، لكن هناك إشارات عديدة إلى أن الغالبية لا يؤدون الشعائر الدينية»[٣]، فمصادر معلومات الرحبي هنا لم تستطع حسم نسبة المسلمين في ألبانيا، هل هم نصف أم ثلاثة أرباع السكان؟، ولكن يبدو أنه أمر غير مجدٍ لأن الغالبية مسلمون في الهويات الشخصية فقط، فهم لا يؤدون شعائر الدين!!

ثالثا: عادات وتقاليد:

تضمنت استطلاعات الرحبي الكثير من عادات الشعوب التي زارها، وتقاليدهم

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٣٨، ٤١.

(٢) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص٤١.

(٣) ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، ص ٤٥.

الاجتماعية، فما بين أنواع الأطعمة والأعياد وبعض الطقوس الخاصة بكل شعب، باتت استطلاعاته «مرايا تنعكس عليها سيماء الشعوب، وسماتهم المتوهجة»(١).

١- عادات بعض الشعوب:

هناك بعض الصفات أو العادات التي تصبح وكأنها سمت أو وسم لشعب بأكمله، فمثلا لفت نظر الرحبي هدوء الشعب في مدينة براغ، وأداء كل شخص لواجباته دون حاجة إلى أعين الرقيب، فيقول: «نزلت في وسط المدينة دون أن يسألني أحد عن التذكرة، درس أول من براغ الثقة بالبشر، كل شخص يؤدي ما عليه دون حاجة إلى تعدد الرقباء»(٢).

كما تحدث الرحبي عن اهتمام الشعب التركي بالتشكيلات الجمالية، فيقول: «حتى أشكال الحلويات تكتسب جمالا فنيا في لغة الصورة»(٣)، وبعد عدة أسطر يتحدث عن جمال البضائع المعروضة في السوق، فيقول: «تتأمل البضائع المعروضة كأنك في معرض تشكيلي، تحف قادمة من زوايا التاريخ»(٤).

وعن طريق المرشد السياحي في تركيا استطاع الرحبي التعرف على بعض العادات العثمانية القديمة، فيقول: «في القرى إذا رأى السائر وردة صفراءعلى شباك بيت، فذلك يعني أن في البيت شخص مريض، فيرجى عدم الإزعاج "غيروا طريقكم"، والوردة البيضاء داخل البيت هناك متزوجون.. فغيروا طريقكم أيضا، وهكذا الحال مع الوردة الحمراء لوجود شخص متوفٍ في المنزل»(٥)، كذلك هناك عادة تركية في قِرى الضيف فـ«إذا شرب الماء قبل القهوة، فذلك يعني أنه جائع، فيسرع أهل البيت بتقديم الطعام له، أما إذا فعل العكس، فإنهم يأتون إليه بحلوى راحة الحلقوم التركية الشهيرة»(٦).

---

(١) الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، ص ١.

(٢) براغ أم كل المدن، ص ٤٥.

(٣) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، مجلة العربي، ع ٧٥٣، أغسطس ٢٠٢١م، ص ٤٤.

(٤) السابق ذاته.

(٥) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٥٦.

(٦) السابق، ص ٥٦-٥٧.

وعندما ارتحل الرحبي إلى البوسنة، طلبت منه صاحبة الشقة التي استأجرها أن يضع حذاءه خارج البيت هو وصحبه، وينقل لنا ذلك الموقف قائلا: «طلبت مني ميرلا أن نستبقي أحذيتنا خارج البيت هذه تقاليدهم، أخبرتها أنها تقاليدنا أيضا، أن نبقي النعال خلف رز الباب احتراما للمكان، وكما أنه مقدس كدار عبادة»(١).

ثم يحاول تصوير رهبة الألبان من التقاط الصور، ومخافتهم من التصوير، ففتاة الاستقبال التي لقيها في الفندق الذي نزل به هناك رفضت التصوير (٢).

والمفارقة أيضا أن بائع آلات التصوير نفسه رفض أيضا التقاط صورة له، ويعبر عن ذلك الرحبي قائلا: «إنهم يخافون من التصوير! في محل يبيع آلات تصوير ومتعلقاتها ومقتنيات قديمة دالة على تاريخ الصورة، اقتنيت فيلم كاميرا من نوع كوداك يتضمن مساحة لالتقاط ٢٤ صورة، أشبهه بأنه يتخذ وضعية الجنين برأسين، استأذناه للتصوير، وهو الذي يعيش تفاصيل هذا العالم، لكنه رفض وبشدة، حتى الصور من خارج دكانه تبعنا ليتأكد أن صورته ليست ضمن المشهد»(٣).

٢- الاحتفالات والأعياد:

صادف الرحبي أثناء زيارته لفيتنام عيد رأس السنة القمرية هناك، وقد حاول نقل عادات الشعب الفيتنامي في الاحتفال بهذا العيد، فيقول: «اللافت هو تلك العادات والتقاليد المرتبطة بهذه المناسبة،فيختلف أسلوب الفيتناميين في استقبال السنة القمرية الجديدة حسب المناطق، لكنهم يعدون العيد هو الأيام الثلاثة الأولى، ويرون أن ما يفعله البشر في تلك الأيام مؤثر على مصائرهم، ويقال إن بعض الأشخاص يغلقون بيوتهم في وجوه الآخرين عدا الأهل والأقارب، وتكاد الشوارع والأماكن العامة تخلو من البشر»(٤).

ويصور لنا بعض الاحتفالات في ليالي كوسوفو، التي يرى الرحبي أنها مدينة تعرف

---

(١) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٤٠.

(٢) ينظر: ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، ص ٤٦.

(٣) السابق، ص ٤٨.

(٤) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٤٢.

والضباب، ص ٤٢.

قيمة الليل، فيقول: «يالهذه المدن الحية التي تعرف قيمة الليل، فتسهر تحت ضوء قمره ونجومه، ويالمشهد الجديد الذي نصافحه للمرة الأولى: أطفال يحملون الطبول الصغيرة فيقرعونها بمهارة، فرادى أو مشتركين معا، وعلى من يجد في روحه طربا من المتحلقين حول الصبية، فليرقص بجسده، وأيضا فرادى أو مشتركين معا.. يتصاعد صوت الطبول والصغار يترقبون غيث العطاء من العابر من قبل أن يسدل الليل ستارته، وتغيب الأشياء في عتمته، فالشمس تسحب رداءاتها حتى إذا ارتفع الأذان من جامع المعماري سنان سكت الطبل عن القرع.. المباح»[١]، فهو احتفال شبه ليلي، وإن كان الغرض منه التكسب، ولكن لا بأس طالما هناك ابتهاج، فالموسيقى في كوسوفو تحاول أن تثبت وجودها في الساحات العامة.

٣- حرف وزراعات:

حاول الرحبي نقل بعض حرف الشعوب التي زار مدنها، وأشهر المحاصيل الزراعية في كل منطقة، فأثناء حديثه عن بهلاء العمانية عرَّج على صناعة الفخار، تلك الصناعة الأشهر في الولاية، فيقول: «سرنا إلى بقعة بهلاوية لا يمكن تجاوزها، فالولاية معروفة بصناعة الفخار، وهناك وجدنا أحمد العدوي يضع اللمسة الأخيرة على آنية فخارية... وسعيد العدوي المعلم الذي ترك عمله معلما بإحدى مدارس الولاية ؛ ليختصر خياره في جملة "تركت التربية إلى التربة"، لكن بقي المعلم الذي يفتح أبواب مصنعه للطلبة أيضا ليأخذوا دروسا في صنع الفخاريات»[٢]، فهي أسرة أخذت على عاتقها حماية هذه الحرفة من الاندثار، ومحاولة تطويرها لتواكب العصر.

وفي مدينة هانوي بفيتنام، يعتبر رسم اللوحات الفنية واحدة من أهم الحرف في المدينة، فيقول: «في مدينة هانوي ما شدَّني أكثر هو تلك المعارض الفنية المتكاثرة، حيث لا يوجد شارع مهما بدا صغيرا، خاليا من محل لبيع اللوحات الفنية، بعضها متشابه يميل إلى التناسخ في لوحات كثيرة، وبينها الذي يحتفي بالطبيعة، لكن الأسلوب يكاد يكون واحدا»[٣].

---

(١) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدا باتجاه الحقول، ص ٥٣.

(٢) بهلاء العمانية شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، ص ٤٤.

(٣) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٤٤.

وأما حديثه عن المحاصيل الزراعية الخاصة بكل بلدة، فنجده يتحدث عن محصول قصب السكر في صعيد مصر، وتحديدا في الأقصر، فيقول: «كانت مياه النيل تكتب سفر حياة خالدة، والفلاحون يرسمون على ضفتي الماء أدوارهم في مسار هذا الخلود... وكنت أحمل كل ذلك مجتازا الجمال المتماهي بين لوني الماء والزرع، وعربات تنقل تلالا من قصب السكر إلى هناك (البر الغربي) حيث قسوة المكان ورمز القداسة»(١).

وأثناء زيارته للبوسنة تحدث عن الكرنب واليوسفي، كأبرز محاصيل هذه البلدة، فيقول: «باعة الكرنب.. سلطة الشتاء والمحاشي، واليوسفي فاكهة الموسم، يتكاثران على موائد الطعام، الحقول تمتد بما نسميه الملفوف والباعة على الشوارع يعرضونه بكثرة، حيث لا ياتي الشتاء بعد حين من الوقت بأية ورقيات ولا فواكه»(٢).

وعن قمح بهلاء أفاض الرحبي في الحديث، ويبدو أنه هيج الذكرى لديه والحنين للطفولة، فكتب يقول: «في قسمات الطفل تبدو الحكاية أعمق، بهلاء تحصد السنابل، وقمحها مال على سوقه يعجب الزراع، لكن عيني الصغير تكتب سطرا مدهشا بجانب أبيه يعيش أسطورته الخاصة، ستمكث في مفكرة حياته ما سيكتبه الله له من عمر، فلا شيء كدهشة الطفولة يبقى، ولا كذكرياتها العابقة بزهر الليمون ورائحة طلح النخيل ومشاهد أعواد القمح، تميل على وقع نسمات تختال بين واد وجبل، فتلك الهضاب ملاعبها، وأنت أيها العابر ترنو إلى السماء فتتبلل بعبق الخصب، وإن كانت السماء غاية في الزرقة»(٣).

٥-عادات غذائية ومأكولات:

في حديث الرحبي عن فيتنام ومدنها، حاول تصوير واقع بعض المطاعم هناك، فعلى رواد بعض مطاعمها إعداد وجباتهم كما يحلو لهم من المكونات الموجودة داخل المطعم، فيقول: «لا تتحمل مِعَدُنا تلك الخلطات الغريبة لوجباتهم المتناثرة على الطاولات بثقافة مختلفة، حيث الكراسي الصغيرة أمام الطاولات التي لا ترتفع إلا قليلا

(١) من الأقصر إلى أسوان رحلة نيلية على مراكب الشمس، ص ٤٣.

(٢) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٥٣.

(٣) بهلاء العمانية شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، ص ٦٤.

عن سطح الأرض، وعليها الخضروات والأرز، والآنية الجامعة لتلك الطبخة فوق النار، فالزبون يعد طبخته كما يحب، وأمام المارة كما يتناولها مع عائلته، وكأن الشارع ملغي من حساب تلك اللحظات، هي البساطة والحياة الفقيرة التي يعيش فيها الأغلبية»(١).

ويلفت نظر الرحبي استعراضات باعة المثلجات أو الأيس كريم في شارع الاستقلال في تركيا، حيث يقومون ببيع هذه المثلجات بطريقة مسلية، تجلب السعادة للمتفرج قبل المشتري،فيقول: «شارع الاستقلال به من المبهجات ما يجعل التسكع جميلا.. باعة البوظة أوالأيس كريم بحركاتهم التي أضحت معروفة، لكنها ممتعة ومسلية، فجملتهم "حركات بركات" بيّنة في علاقتهم مع ذلك الشكل المخروطي من الحلوى المثلجة، وهي تراوغ اليد التي تنتظر الإمساك بها، فتجفل الضحكات حتى من المارة، وهم يشاهدون حفلة سيرك مصغرة قوامها ألوان شتى بنكهات مختلفة، ومن يمر.. فله الفرجة مجانا»(٢).

وتصادف الرحبي في (البصرة) كلمة معلقة على جدران المطاعم هي: (الوير)، وهي كلمة لا يعرف مدلولها، ويحاول الاستفهام عنها فيقول: «دعتني كلمة الوير للاستفهام عنها، فالمطعم يضع لافتة وفي أكثر من زاوية، تقول عن هذا المسمى بالوير يمنع نهائيا، فإذا به يعني محاولة البعض دفع حساب شخص آخر يجلس على طاولة ما في المكان، ويبدو أنه لإزالة الحرج، أو لتقليل حجم النقاش بين الطرفين.. الدافع والمدفوع!!»(٣).

أما عن المأكولات والمشروبات، فقد تطرق الرحبي لها في حديثه أثناء استطلاعاته، ففي النمسا لم يفته الحديث عن الشوكولاتة الشهيرة بها، فيقول: «المحال تعرض شوكولاتة محتفية بموزارت، والسياح يطلبونها لأنها تتخذ من ملهم وعبقري مذاقها المتعدد طعما وشكلا كالموسيقى التي غرسها في سالزبورج، هناك مايشبه آلة الكمان، وهو ما مثَّل عشقا جميلا في حياة موزارت، ويقال إن كرات الشوكولاتة المعروفة باسم

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٤١.
(٢) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٤٨.
(٣) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٤٥.

"موزارت كوغلن" ابتكرها عام ١٨٩٠ حلواني يدعى بول فورست، وهي مزيج من المرزبانية (عجينة لوز بسكر) وشوكولاتة ذائبة، كما يشير أحد المواقع الالكترونية، ويواصل رحلتها نوبرت فورست حفيد الحلواني الأول الذي صنعها، وأسس لإنتاجها شركة تتوارث الطعم الجميل»[١].

كذلك لم ينسَ طعم القهوة الفيتنامي خلال رحلته هناك، وطريقة سكبها في الكوب، فيقول: «ما ينافس محال الفنون هي محال القهوة، حيث النوع الفيتنامي الأخاذ، وإبريقه الصغير الذي يمنح الكوب قطرات منه على مهل، كأنما هو في لحظة كتابة قصيدة لا يمكن أن تكون مكتملة دون الكلمة الأخيرة، في حين تبقى السلافة عالقة في الإبريق الصغير الذي يعلو الكوب، قطرة فقطرة كأنه يحاكي المطر في الشارع أمامه، فتفوح الرائحة كرائحة الماء المنسكب على الأرض بردا وسلاما»[٢].

وعن الوجبات الشعبية العراقية تعرف على "الكاهي والقيمر" عن طريق إحدى الكاتبات العراقيات، حيث دعته لتناولها فيقول: «سألتني الكاتبة والناشطة العراقية جميلة الصيمري إن كنت جربت مذاق الأكلات العراقية؟ فنفيت أنني عرفتها كلها وما أكثرها، فكانت دعوة أخرى على وجبة شعبية في البصرة، وربما في عموم العراق "كاهي وقيمر" وفي وقت الأعياد تغدو مكملة لكل فرح»[٣].

---

(١) النمسا تبتسم في ليالي الأنس، ص ٥٧.

(٢) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٤٦.

(٣) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٥٨.

المبحث الثاني
آليات كتابة النص الرحلي
في استطلاعات محمد بن سيف الرحبي بمجلة العربي

المطلب الأول العتبات:

أولا:عناوين الاستطلاعات:

حين تشحذ الذاكرة وقودها من أوار التاريخ والجغرافيا، يفسح اللسان المجال للشواهد والقلاع والعادات الاجتماعية؛ لتروي لنا ملحمة الإنسان في بقعة ما.

هذا مافعله الرحبي في استطلاعاته، فقد سطر عناوينه بأنامل الروائي؛ ليضفي بها سحرًا خاصًّا على معالم المدن التي مر بها، ففي استطلاعاته تبتسم فيينا النمسا في ليالي الأنس، وتظهر أمومة براغ لكل المدن، ثم يأتلق البحر والضباب ليريانا معا فيتنام في أبهى حللها، وتؤول بنا الطرق إلى مصر من خلال قاهرة المعز أو مدينة الإسكندر، وتعزف تركيا أنشودة البوسفور على إيقاع بحيرة الصنوبر، وترمم البوسنة ذاكرة حروبها بالسياحة فترينا دمها المنهار، وتذيقنا عسلها، بعدها تروي لنا شواهد الطين في بهلاء العمانية أساطيرها وسيرها الخفية، وتحكي لنا ألبانيا حكاياها المنسية، وأخيرًا يحلق الطائر الأسود بعيدًا باتجاه الحقول في كوسوفو.

وفي أغلب هذه العناوين منح الرحبي مدنه حرية الرواية؛ لتحكي لنا هذه المدن وما بها من آثار قصص من عبر، وتحفر أخاديدها في ذهن من حضر.

ويمكن تقسيم عناوين استطلاعات الرحبي إلى قسمين:

١- رحلات محددة ٢- رحلات غير محددة

١- رحلات محددة:

تأتي بعض عناوين رحلات الرحبي محددة التخوم والمعالم، مثل: من الأقصر إلى أسوان.. رحلة نيلية على مراكب الشمس، فمن خلال هذا العنوان يستطيع القارئ أن يعرف أنه لن يزور في مصر سوى الأقصر وأسوان، بل وإن رحلته ستكون نيلية، وعنوانه: من الريف إلى فيينا.. النمسا تبتسم في ليالي الأنس، فيبدو منه أن الرحبي سيتجه من ريف النمسا إلى فيينا، ويطالعنا بعنوان آخر هو: بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر.. كل الطرق تؤدي إلى مصر، فيشي هذا العنوان برغبة الرحبي في التجول

بين القاهرة والإسكندرية فقط، ومن خلال العنوان الفرعي يلمح القارئ مدى سطوة شخصية مصر على أبنائها، ووسمهم بطباعها مهما اختلفت المدن وتنوعت البيئات، وأيضا بهلاء العمانية.. شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، فالعنوان ينبئ القارئ بأن الرحبي سيزور بهلاء العمانية فقط دون غيرها من سائر المدن العمانية.

٢- رحلات غير محددة:

وفي مقابل العناوين المحددة الأبعاد تأتي عناوين أخرى غير محددة، يعلم القارئ منها اسم المدينة التي سيزورها الرحبي دون تحديد لنقطة الانطلاق، أو محل الوصول في الدولة أو في المدينة، مثل: براغ أم كل المدن ذات الأبراج الحادة، فالعنوان هنا يوضح أن الرحبي سيزور براغ، دون تحديد لأماكن أخرى سيمر عليها، أو معالم معينة سيزورها، وكل ما طالعنا به العنوان الفرعي هو أمومة براغ لكل المدن، ووصف ما فيها من أبراج حادة، ثم يأتي عنوان فيتنام معزوفة البحر والضباب؛ ليشي هذا العنوان ببعض الظواهر الطبيعية للبلدة دون تحديد لأي المعالم أو المدن التي سيزورها الرحبي في هذه الدولة، فالرحلة منفتحة قدر انفتاح البحر والضباب في هذا المكان، وعنوان مثل تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، فبالرغم من ذكر من وإلى اللتين توحيان بتحديد الاتجاهات، إلا أن العنوان منفتح قدر سعة المسافة بينهما، وتأتي البوسنة في عنوان البوسنة بلد الدم والعسل.. ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، دون تحديد لأي الأماكن أو المعالم السياحية التي سيزورها الرحبي في هذا الاستطلاع، ونطالع أيضا عنوان ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، لتفسح الجغرافيا هنا المجال للتاريخ لرواية حكاياته المنسية في هذه الدولة، وأخيرا عنوان كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدًا باتجاه الحقول، عنوان لا ينم عن تحديد مكان أو معلم.

وهكذا تنوعت عناوين الرحبي بين الرحلة محددة الجنبات والاتجاهات، والرحلة المفتوحة التي تعد القارئ بالانطلاق بين ربوع المكان ومعالمه، وإن كان القارئ يشعر بالمتعة في ارتياد أي من هذه الرحلات سواء في ذلك المحددة أم غيرها.

ثانيا: المقدمات:

تنوعت مقدمات الرحبي وتداخلت فيها كثير من الأحاسيس ما بين شغف للترحال، أو وصف سريع للمدينة أو الدولة، أو تسليط الضوء على لحظة تاريخية مهمة في حياة

البلدة، أو القلق البادي من الظروف المحيطة بالرحلة، أو حتى المكان المزار، ويمكن تقسيم مقدمات الرحبي إلى ثلاثة أنواع:

١- مقدمة الهوس بالآخر.

٢- مقدمة الرهبة من الآخر أو الظروف المحيطة بالرحلة.

٣- مقدمة الحب والتسامح تجاه الآخر.

١- مقدمة الهوس بالآخر:

يظهر من بعض مقدمات الرحبي مدى شغفه، أو هوسه بالمكان المزار (الآخر) ففي مقدمة رحلته إلى النمسا يقول: «قيل لي: عليك بـ"زي لام سي" وهي قرية نمساوية يوصف جمالها بأنه السحر بعينه، تجاور الحدود مع ألمانيا، لكن أسمهان أخذتني إلى العاصمة النمساوية منذ عشرات السنين، حيث وعدتني بـ" ليالي الأنس في فيينا" ومنذئذٍ أغوتني نفسي الأمارة بالسفر أن أذهب إليها، برغم أنها ليست ضمن مسار الرحلة»(١)، فهذه المقدمة تُظهر مدى شغف الرحبي بفيينا وحرصه على زيارتها، نظرًا لما ادَّخره في ذاكرته عنها من وعيد وأسرار عن طريق أغنية أسمهان الشهيرة: ليالي الأُنْس في فيينا، فيقرر السفر إليها بالرغم من عدم الترتيب لذلك مُسبقًا.

ومن خلال مقدمة رحلته إلى: براغ، يُظهر مدى إعجابه الذي يصل إلى حد الهوس بهذه المدينة؛ إذ يقول: «هناك مدن كالأحلام، تلوح كطيف قبل أن تشتبك مع ملامحها من خلال نافذة الطائرة، وتبقى كالطيف حتى وإن عُدت منها، كأنما الأيام لم تُشبع نهمك لاكتشاف مدينة أوسع من حلم، بكل ما تضمه في كتابها من جمال طبيعة وحكايات تاريخ»(٢)، فهو يُصرّح بمدى نهمه لاكتشاف مدينة براغ، ويُوضح من خلال مقدمته لزيارتها أن رحلته إليها لم تبلّ صداه، فلم يكتف من جمال طبيعتها ولا من تاريخها.

وفي مقدمة رحلته إلى: فيتنام، يقول: «كنت شغوفًا بفيتنام؛ لأرى هذه التي احتلت نشرات الأخبار سنوات طوال، وأدمت البيت الأمريكي، وسُمعة الرئيس نيكسون قبل أن

(١) النمسا تبتسم في ليالي الأنس، ص ٥١.

(٢) براغ أم كل المدن ذات الأبراج الحادّة، ص ٣٧.

تُطيح به فضيحة ووترجيت ليستقيل في التاسع من أغسطس عام ١٩٧٤م، مشغوفًا بالشمال العنيد الذي لم يُفرّط في جنوبه رغم دعم الولايات المتحدة لحكومة سايجون في الجنوب، إنما التاريخ يكتبه عادةً أصحاب الأرض؛ لأنهم أصحاب قضية»[١]، فإعجابه بفيتنام مبعثه تقديره لشموخها وصمودها ضد أمريكا، وضد دعاوى التقسيم التي تبنتها، كما أنه يكمن في إجلاله لشعبها الذي أراد أن لا يُقهر بالرغم من القوى التي احتشدت ضدّه، والمحاولات التي دُبِّرت لتمزيق أشلائه.

وبمطالعة مقدمة رحلته إلى البصرة، يظهر للمتلقي مدى إعجابه بهذه المدينة، بل وحبه الجارف لها، إذ يقول: «بدا لي أن الموعد مع هذه المدينة جاء متأخرًا، وأنه ما كان ينبغي لي أن أمضي كل ما مرَّ من عمر بدون اللقاء بهذه الجميلة المدعاة: بالبصرة، ولكنّي ألقيتُ بحمولة المبررات على تاريخها المُثقَل بالآلام والحُزن... وشدّدتني عيون البصرة إليها، فقلت لا بدّ أن أُبصرها رؤيا العين، فمن رأى ليس كمن سمع، ومَن سار على طين الخطوة لا يُشبه مَن بقي يرمق شموخ النخيل من بعيد، فلا بدّ من رائحة الأرض وظل النخل»[٢]، فيظهر مدى إعجابه بهذه المدينة منذ اختياره للعنوان، فقد اختصر الدنيا بكل ما فيها من أفراح وأتراح، وآمال وآلام، لتُصبح الدنيا كلها (بصرة على شط العرب)، ويلوم نفسه في المقدمة لتأخّره عن زيارة هذه الجميلة، على حَدّ وصفه لها، ويتذكّر قول الشاعر: عُيون المَهَا بين الرّصافة والجِسْر... ليخلبه سحر العيون وما وراءها من جمال وحُسن، فيذهب إليها وكله شغف لعبق الماضي، وسحر الحاضر.

٢- مقدمات الرهبة من الآخر:

ظهرت في بعض مقدمات الرحبي، مظاهر الرهبة من الآخر، أو من الظروف المحيطة بترحاله إليه، ويبدو ذلك في مقدمة رحلته إلى تركيا؛ إذ ظهر قلقه فيها من الأوضاع العالمية التي أثقلت كاهل العالم، بسبب جائحة كورونا، وما خلفته من آثارفيقول: «يجاذبنا الحنين للترحال برغبة الاستكشاف لمدينة جديدة، أو حتى العودة

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٣٧.

(٢) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٣٧.

إلى أمكنة قديمة نستعيد فيها إيقاع سيرنا قبل حين من العمر، لولا أن الزمن الكوروني أوصد الأبواب، ليس أبواب المطارات والطائرات فحسب، بل الروح وهي تخشى أن تغادر جسدها بضربة قاضية من كوفيد التاسع عشر؛ إذ يمرح فسادا في جسد الكرة الأرضية منذ ما يقرب العشرين شهرا، تاركا آثارا مرعبة وضعت العالم، غنيه وفقيره في حالة من اللايقين بين فتح سبل الحياة أو إغلاقها، ويقينا من يسافر في الفضاء الرحب لابد أن يؤوب إلى سطح هذه الكرة المتعبة من المتحورات المتلاحقة لفيروس خطف من أعين الرحالة أحلامهم بالسفر، وتقطعت بهم سبل رغباتهم بين مضي نحو المغامرة أو نكوص عنها»(١)، فبين القلق والرهبة سطر الرحبي هذه المقدمة، التي لاتنم عن خشيته من الاستمتاع بالرحلة كما يجب أن يكون وحسب، ولكنها تشي أيضا بخوفه على روحه من مغادرة جسده على حد تعبيره، بسبب هذا الفيروس اللعين، الذي أعيا الكون بأجمعه، وأجهض أحلام البشر، كما يبدو تردده أيضا بين البدء في الرحلة أو الإقلاع عنها.

ومن خلال مقدمة رحلته إلى القاهرة، نلمس قلق وخوف من المجهول، فيقول: «أصل إلى مطار القاهرة على درجة من القلق لا أستسيغ حضورها، كأنها صارت جزءا من علاقتي بالمكان، كأنما أخشى من شئ على غير توقع، يخدش جمال علاقتي بهذه المحروسة، وقد زرتها كما لم أزر أي بلد آخر، وأجدني على قدر كبير من الحماسة حينما أشد الرحال إليها»(٢)، فيبدو القلق بين جنبات هذه المقدمة، الذي لا يجد الرحبي له تفسيرا، فلديه رهبة دائما من حدوث أي منغص ينغص عليه رحلته أو يحول دون استمتاعه بها، وحتى لا يتوهم القارئ أن الرحبي قليل الزيارات إلى القاهرة، ينفي الكاتب هذا التوهم بتوضيح كثرة زياراته لها دون غيرها من البلدان، بل وإنه يتحمس دائما لتجديد زيارتها المرة تلو المرة.

٣- مقدمات الحب والتسامح تجاه الآخر:

تجلى في بعض مقدمات الرحبي مدى حبه وتسامحه تجاه الآخر، وقد بدا ذلك من

(١) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٣٧.

(٢) بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر كل الطرق تؤدي إلى مصر، ص ٣٧.

خلال: وصفه لبعض المدن، أو تصويره للحظة تاريخية معينة للآخر بحب وإكبار.

فمثلًا بمطالعة مقدمة استطلاعه: من الأقصر إلى أسوان رحلة نيلية على مراكب الشمس نجده يقول: «حدثتني نفسي الأمارة بالسفر، بالخروج من علاقتي المعتادة بأم الدنيا إلى ما هو أوسع، فمصر التي في خاطري ممتدة حسب قواعد الجغرافيا والتاريخ إلى ما هو خارج عاصمتها القاهرة، وما فيها من نقوش حضارات فرعونية وفاطمية وغيرهما، كلما شاء للزمان أن يضع بصمة على أرض النيل»[١]، ويستطيع القارئ أن يتبين مدى حيادية هذه المقدمة؛ إذ إنها لا تنم عن إعجابه بالمكان ولا رهبته منه، أو من الظروف المحيطة بالرحلة، ولكنها تبين مدى تسامحه مع أرجاء مصر وحبه لها؛ إذ يتطلع هذه المرة إلى زيارة الأقصر وأسوان مهد الحضارة الفرعونية وحاضنتها.

وفي مقدمة رحلته إلى البوسنة، يقول: «على مصطبة التاريخ أضع الاسم وأفتش عن تاريخيته، البلاد التي تشهد ولادات متواصلة، باحثة عن أعمدة راسخة كجبالها، وهي تعانق الغيم يهبط ليقبل كل زهرة فيها، وقد استوت شابة تقارب الثلاثين منذ أن وُلِدت آخر مرة من أفواه المدافع وروائح البارود.. يختال علي عزت بيجوفيتش يرفع رايتها على سوار من دم الشهداء، فيما كان القرن العشرون يوشك أن يودع سنواته الأخيرة. هي البوسنة والهرسك ومع جناحيها حلقت أزمنة، فجرت أنهارها وشلالاتها بفيض من دم أبناء البلاد، والغزاة الذين انتهكوا جبالها المحصنة بالاخضرار والحسن، فكيف ببياض فقاعات الماء أن يستبقي لون الدم القاني؟!، وأنى لمطرها المتدفق أن يحتفظ بأدخنة الحرب، ما قبلها وما بعدها؟!، وكيف لسراييفو – عاصمة البلاد وأكبر مدن البوسنة – أن ترمم ذاكرتها؟ وهي الحريصة ألا تضع الجبس لمعالجة ثقوب الرصاص والقذائف الآتية من زمن الجحيم، والقصف الذي اغتال البشر والأشجار، وانتهك حرمات الأنهار، وهل يجدر بموستار – أكبر مدن الهرسك – أن تنسى عذاباتها وآلاف المقابر ترفع شواهدها، كل شاهد بشهيد؟»[٢]، فمن خلال هذه المقدمة حاول الرحبي الغوص في تاريخ البوسنة؛ ليبين كم المآسي التي اجتاحت تلك البلدة، وماخلفته

---

(١) ص ٣٧.

(٢) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٣٧.

على معالمها وبقاعها من جراح وندبات، ويثير بعض الأسئلة التعجبية عن مدى قدرة هذا المكان على تجاوز كل ماحدث، ونسيان الماضي بآلامه، ومحاولة الغوص في الحاضر بل والانفتاح نحو المستقبل، كل هذا سطره بأنامل متسامحة تسعى إلى الآخر للتعرف عليه، والمثاقفة مع أرجائه.

وفي استطلاعه عن مدينة بهلاء العمانية، يقول: «بهلاء، وبهلى، أو بهلا.. تعدد نطقها على ألسن عارفيها، مرة بفتح الباء وأخرى بضمها كما هو الحال مع حرفها الأخير، لكن شيئا ما يجول في الذاكرة فور أن يُنْطَق الاسم، فهذه المدينة المتدثرة بجبال محافظة الداخلية في سلطنة عمان، وأشهرها جبل الأخضر، وجبل شمس، تدس في مفكرتها القديمة الكثير من الأساطير الشعبية،مخضبة بروايات الماء والطين، كأنها خلق الإنسان الأول، يتحدثون عن سحرها المعتق في مواعين الأمس، لكن لم يرَ أحد شيئا، إنما الجميع سمع، وجرت مقادير الزمن لتبقى المرويات نقشا على حيطان المكان وكهوفه، يبدو غير مرئي، لكنه محسوس ومتداول، لا يعرف شكله أحد، لكنه خاضع لمقاييس الحكايات وهي تخرج من أبواب بهلاء العتيقة، المسيجة بمداد العلماء، وتكبيرات الأذان، ونداءات الطين وهي تبني به أسوارا وقلاعا.. أو يتشكل على أيدي صانعي الفخار مشغولات تكاد تنطق بما أوتيت من حسن صنعة»[(١)]، يبدو الأمر مختلفا في هذا الاستطلاع؛ حيث يعيش الرحبي دور الأنا والآخر معا؛ إذ إنه كاتب عماني أراد تقديم بقعة عمانية للمتلقي، فهو يكتب عن موروثه الثقافي وإرثه الحضاري، ولكن بحياد تام، دون أن يظهر ولعه بالمدينة أو شدة انبهاره بها، ولكنه فقط يحاول أن ينقل للقارئ بعضًا من سحرها المعتق، وطبيعتها المسيجة بالأساطير، بأسلوب يغلفه الحب والتسامح، وكيف لا؟ وهو يتحدث عن جزء من نفسه وبعض منه!.

المطلب الثاني: البناء والخصوصية:

يمكن تقسيم بنية استطلاعات الرحبي إلى سرد ووصف، وقد يتداخل السرد مع الوصف بحيث يصعب الفصل بينهما، فكل وصف يتخلله سرد، وبعض السرديات المحكية يتخللها وصف.

---

(١) بهلاء العمانية شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، ص ٣٧.

أولا: السرد:

قد نجد في المعاجم الأدبية ما يعيننا على تعريف السرد، فهو: «إحدى صيغ الخطاب التي تصف سير الأحداث، بما يرادف الوصف وغيره»(١).

وعرفه دكتور أحمد درويش بأنه: «المصطلح الذي يشتمل على قص حدث أو أحداث، أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة، أو من ابتكار الخيال»(٢).

ومن خلال هذين التعريفين، يمكن تقسيم الأنماط السردية في استطلاعات الرحبي إلى:

١- محكيات داخلية تضيء أنا الراوي. ٢- محكيات أسطورية.

٣- محكيات تاريخية. ٤- محكيات تخص السرد اليومي.

١- محكيات داخلية تضيء أنا الراوي:

بمتابعة استطلاعات الرحبي يمكن للقارئ الوصول إلى بعض المعلومات عن شخصيته، وأبعاد تكوين ثقافته، فنتعرف على تاريخ ميلاد الرحبي من خلال استطلاعه عن البصرة، في أثناء سيره في شارع الفراهيدي؛ حيث الأكشاك التي تصطف على جانبيه لبيع الكتب، يقول: «في كشك خشبي أنيق، كباقي الأكشاك تلوح مجلة العربي بأعداد قديمة، أفرح كمن يلتقي بصديق قديم، هذا العدد من عام ١٩٦٧، أقول للبائع إنه عام ميلادي»(٣)، فمن هنا يكتشف القارئ العام الذي وُلِد فيه الرحبي.

وبعد أن يعرف القارئ أن الرحبي من مواليد عام ١٩٦٧، يقرأ استطلاع (بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر كل الطرق تؤدي إلى مصر)، فيستطيع معرفة جنسية الكاتب، فهو عماني الجنسية، بل ويتأكد أنه ولد في ولاية السمائل، ونشأ فيها؛ إذ يقول: «حمل لي سوق الكتب في سور الأزبكية مفاجأة أقرب إلى مصادفات القدر التي لا تتكرر، رأيت عددا قديما من مجلة العربي، من أعداد مطلع سبعينات القرن الماضي.. المفاجأة التالية أن بهذا العدد استطلاعا عن بلادي عمان، وتتوالى المفاجآت، استطلاع العربي تضمن حديثا عن سمائل الولاية التي أنتمي إليها، فيما كنت أبدأ الصف الأول

(١) معجم مصطلحات الأدب، مجمع اللغة العربية، ج ٢، القاهرة، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م، ص ٩٣.

(٢) تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، أحمد درويش، الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان)، ط١، ١٩٩٨م، ص ٣١٠.

(٣) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٦٠.

الابتدائي للتو في مدرسة بنيناها بأنفسنا من الخيام التي وصلتنا صباح ذلك اليوم، الذي يبدو بعيدا وخياليا أكثر مما ينبغي، وكان مدير المدرسة مصريا، ومربي الصف مصري من الصعيد، أذكر اسمه: حسين مرعي حسن»[١]، فهذه القطعة أمدت القارئ بعدة معلومات عن الرحبي غير أنه عماني من ولاية سمائل، فقد أضافت إلينا أنه تعلم في مدرسة ابتدائية، تحت إدارة مصرية، بل وإن معلمه كان مصريا لازال اسمه عالقا بذاكرته إلى الآن بالرغم من تباعد الأزمان.

ويعرف القارئ من خلال الاستطلاعات أيضا أن الكتابة تسري في عروق الرحبي، فهي ليست هواية ولكنها بالنسبة له حياة، ففي استطلاعه عن ألبانيا يقول: «كعادة اللقاء الأول بشوارع المدينة، تبحث العيون عن المختلف في لوحات تحمل اسم المدن ولافتات الإعلانات، وفي ابتسامات الناس، وكل أمر يستفز السائح ليرى، فكيف به إذ إنه يهجس بحمى الكتابة، وعليه تناول أقرب مهدئات فيضعها على مفكرة هاتفه»[٢].

وبمتابعة الاستطلاعات يتجلى للقارئ مدى التزام الرحبي بتعاليم الإسلام، فنجده يبحث عن القبلة لإقامة الصلاة في ألبانيا، فيقول: «وفيما كنت أبحث عن اتجاه القبلة في غرفتي احترت إلى أي قبلة أنا موليها، فعلى يمين السرير ويساره لوحتان بمقاس كبير، أنوثة طاغية إن لم أستخدم لفظة فاحشة، يكاد إطارهما لا يستوعب ما هما عليه، لكنها فتنة اللوحة أكثر من فتنة الأنثى.. وإغراء الفن وفق القراءة الجسدية»[٣]، ففي بحثه عن القبلة يكاد يتضرر من وجود اللوحتين، ولكنه حاول تبرير وجودهما بأنه الفن.

كما نجده يجاهد نفسه لغض بصره أثناء سيره في شوارع كوسوفو، فيقول: «أن_تحافظ على غض البصر بما يفوق الاحتمال أحيانا، أمام ذلك الجمال الفاتن، خاصة تحت وقع حرارة صيف يدعو إلى التخفف من الملابس قدر ما يسمح به القانون، ويبدو متساهلا جدا»[٤]، وتتبدى المفارقة في أن التخفف من الملابس يخضع لقوانين البلدة إلا أن القانون يبدو متساهلا إلى أقصى درجة، وهذا رأي الرحبي.

---

(١) ص ٦٣- ٦٤.

(٢) ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، ص ٤١، ٤٤.

(٣) السابق ص ٤٦.

(٤) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدا باتجاه الحقول، ص ٤٧.

ثم نتعرف على نوع من الأطعمة الشهيرة في عمان، أثناء زيارة الرحبي لفيتنام، ففي مدينة هانوي يكتشف المانجو المخللة، التي تحيي في الرحبي ذكريات الطفل القديم، الذي خبأه في قريته فيقول: «أحاول أن أقرأ في الوجوه الأكثر تشابها ملامح الإنسان، وعلاقتها بالأرض السائر عليها، الأجسام الضئيلة خلف مناضد البيع في المحال التجارية، أو عربات الفواكه والملابس، أو فوق مقاعد الدراجات على اختلافها بين نارية وهوائية، قطع المانجو الأخضر المرشوش بالملح والفلفل الأحمر، ذكرتني بقريتي، حيث يحلو لنا ذلك، فعدت للطفولة أمازج بينها والرجل الخمسيني الذي يستكشف عواصم الدنيا»(١).

وهكذا من خلال الاستطلاعات يستطيع القارئ أن يكتشف بعض النقاط التي تضيء بعض الجوانب الشخصية للكاتب، فيقترب منه أكثر ويقبل على كتاباته وكأنه يقبل على صديق، أو شخص قد سبق له العهد به.

٢- محكيات أسطورية:

لم يغفل الرحبي سرد بعض المحكيات الأسطورية، كلما واتته الفرصة في أي مكان زاره، ارتبط بهذه الأساطير.

والأسطورة هي: «اعتقاد جماعي تصنعه تجربة الإنسان مع الطبيعة والكون بعامة»(٢)، فنراه يتذكر الأسطورة اليونانية أثناء عبوره مضيق البوسفور في تركيا، فيقول: «هل نحن حقا في ممر البقرة؟! هكذا كانت اليونان تراه في معتقداتها القديمة، فأطلقت عليه اسم بوس هوروس، الأسطورة تُروى عن الإله زيوس الذي حول محبوبته أيبو إلى صورة بقرة خشية عليها من غيرة زوجته، لكن زوجته عرفت خدعته فسلطت الذباب على أيبو التي هربت عبر هذا المضيق، فجاءت كلمة (بوس) البقرة و(هوروس) المضيق، فتشكلا: بوسفور»(٣)، ففي هذا النص محاولة من الرحبي لإيجاد تعليل تسمية للبوسفور، عن طريق رد هذا الاسم إلى الأصل الأسطوري، الذي حاول الاقتراب من فكر الإنسان القديم، حينما أراد أن يتخيل ويعبر.

---

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٤٢- ٤٣.

(٢) صانع الأسطورة في الشعر العربي الحديث، د. عبد الناصر حسن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٦م، ص ١١.

(٣) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٥١.

وعبر جدلية الواقع والخيال، ومن تضافر الماضي والحاضر، يحكي لنا الرحبي سر وجود السور الذي يسيج بهلاء، دون غيرها من سائر الولايات العمانية، فيقول: «يقال: إن الأختين غيثاء وميثاء، كانتا تعيشان في الولاية، فأتقنتا علوم الجن والسحر، وكما يحدث في أفلام هوليود، فقد سخرتا علومهما لمساعدة الأهالي، فأكسبهما ذلك حب الناس وتقديرهم، وكانت بجوارهما مملكة يحاول حاكمها التمدد والاستيلاء على المدينة، مما أجبر الوالي على دفع الجزية، ورأت ميثاء وغيثاء ما أصاب الناس من ضيق العيش بسبب هذه الجزية الظالمة، فقررتا التصرف وذات ليلة شيدتا سورا فاجأ الناس صبيحة اليوم التالي، كأنهما جنيتان طلبتا عون أهاليهما لبناء السور في ليلة واحدة»(١)، فالرحبي لا يعلم على وجه التحديد من القائل؟ ، ولا يستطيع أن يتحقق من صحة الخبر، لكنها موروثات جمعية شبَّت مع الأجيال، وتواتر نقلها، ربما لتضفي على المكان بعضا من الغموض والغرابة، أو ليستمد قوة من قوة منشئيه.

ولم تكتفِ الأسطورة بتسييج المدينة، بل تعدت هذا السور الذي يحيط بجسد المدينة؛ ليدافع عنها ضد كل من يحاول الاقتراب منها، ويفتح ذراعيه لكل أهلها، فتخطت الأسطورة هذا السور لتدخل إلى عالم الولاية ومعالمها، ففي السوق أيضا تبقى الأسطورة شاهدا على عبق المكان وقدمه، ويوضح لنا الرحبي ذلك قائلا: «وصولا إلى" نقصة" السوق، حيث تقول الأسطورة إن كل من يتكيء على هذا العمود الطيني، سيبيعه السحرة في مزاد علني، سيدخله خلال لحظات إلى عالم غيبي، وموته المباغت ليس إلا نقطة تحوله إلى وجبة دسمة على مائدة السحرة»(٢).

٣- محكيات تاريخية:

يحتل التاريخ مكانا بارزا في استطلاعات الرحبي؛ إذ يرجع إليه دائما، ليسلط بقعة ضوء على الآخر، فتتيح للقارئ معرفة بعض المعلومات عن مكان أو عن شخص معين.

فنجده مثلا يتحدث عن المنتزه، وبداية بنائه خلال زيارته للإسكندرية، فيقول: «بدأت قصة المنتزه عام ١٨٩٢م، كما تشير المعلومات المتداولة، مع إنشاء الخديوي

(١) بهلاء العمانية شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، ص ٤٨.

(٢) السابق ص ٣٩.

عباس حلمي الثاني "قصر السلاملك" ؛ ليكون قصرًا لصديقته المجرية الكونتيسة ماري توروك هون زندو، حيث بُني على نمط القصور النمساوية في منطقة تشبه الغابات التي اعتادتها في بلادها بإطلالة على المتوسط، وبعد أن تزوجها أصبح اسمها جويدان هانم، وتم تحويل القصر إلى فندق في خمسينات القرن الماضي»[١]، فسرد لنا الرحبي هنا تاريخ بناء قصر المنتزه، والداعي لبنائه، ثم بداية تحويله إلى فندق وفق ما أتيح له من معلومات، كما صرح هو بذلك.

ثم يسرد لنا حدثًا تاريخيًّا آخر يحمل من الإثارة والتشويق، ما يدعو للفت انتباه المتلقي، وذلك في استطلاعه عن تركيا؛ إذ يحكي لنا قصة وفاة السلطان محمد شلبي، وكيفية إخفاء خبر وفاته حتى حضور ولده، وتمكينه من الجلوس على عرش ولاية أدرنة، فيقول: «السلطان محمد شلبي توفي في أدرنة عام ١٤٢١م عن عمر ٤٣عاما، وتروي المصادر التاريخية أنه توفي بسبب مرض عانى منه نحو ستة أشهر، وأن الصدر الأعظم امتثل لرغبة السلطان، فتعاون مع الوزير إبراهيم باشا الجندرلي على إخفاء موت محمد الأول (شلبي) عن الجند، حتى يحضر ابنه، فأشاعا أن السلطان مريض، وأمرا بإغلاق كل الحدود خوفا من قدوم مصطفى جلبي من جزيرة لمنى (امنوس) وهي قريبة من أدرنة وجلوسه على العرش، فلم يذع خبر وفاة السلطان طيلة ٤١ يومًا، وتمضي الروايات أنه حتى من في القصر لم يكونا على علم بخبر موت السلطان، الذي حُنِط جثمانه، للحفاظ على جسده دون تحلل ريثما يصل ولي العهد، إلا أن الجند أصروا على رؤية سلطانهم، فما كان من طبيبه كزوزان إلا أن اقترح بأن يجلس السلطان على كرسيه، وكأنه حي، ويقوم أحدهم من خلفه بتحريك يديه ورأسه، للتدليل على ذلك، فيما تخفي الغرفة المظلمة بقية التفاصيل، كون أن العتمة أرادها السلطان لراحته في مرضه، وتولى الطبيب إضفاء المشهد الدرامي حيث دخل عليهم صائحا وشاتما هؤلاء الذين لا يريدون الصحة لسلطانهم، بينما هو يقوم بعلاجه، وبعد وصول مراد إلى بورصة، أعلن خبر وفاة السلطان محمد شلبي. بعد فترة حكم منفردة امتدت نحو

(١) بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر كل الطرق تؤدي إلى مصر، ص ٦١.

سبع سنوات، وما يقارب من عشرة أشهر»[١]، قصة تاريخية يسردها لنا الرحبي، أبطالها ومدبروها ثلاثة أشخاص، الصدر الأعظم والوزير والطبيب، كلهم يشتركون لإنفاذ وصية سلطانهم، وهي تسليم مقاليد الحكم لولده مراد، وقد حفظوا الوصية وتفانوا في تنفيذها، طيلة واحد وأربعين يوما، ريثما حضر ولد السلطان وتسلم ميراث أبيه.

ويحكي لنا تاريخ كوسوفو، منذ وصول العثمانيين إليها حتى وصولها إلى الحكم الذاتي، والانفصال عن صربيا، فيقول: «وصل العثمانيون إلى هذه البلاد عام ١٣٨٩م، حينما فُتِحَت على يد السلطان مراد الأول، وظلوا فيها خمسة قرون، وبعد حرب البلقان الأولى عام ١٩١٢م تقاسمت أراضيها مملكتا الصرب والجبل الأسود، وبعد الحرب العالمية الأولى كانت ضمن مملكة يوغسلافية، وبعد الثانية ضُم هذا الإقليم إلى ألبانيا المحتلة من قبل الإيطاليين، الذين تخلوا عنها سريعا، لتُضَم عام ١٩٤٦م إلى يوغسلافيا الاتحادية، وبعدها بعام عرفت حكما ذاتيا ضمن اتحاد الجمهوريات اليوغسلافية، لكن مع رحيل الرئيس جوزيف تيتو واتحاده اليوغسلافي، وفي عام ١٩٨٩م بالتحديد، انتزع الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش حق الحكم الذاتي منها، فكانت فترة قمع دموي عرفه ألبان كوسوفو، فبدأوا مرحلة نضال على يد رئيس حزب الاتحاد الديموقراطي الألباني، الأديب والأستاذ الجامعي: إبراهيم روغوفا، نضال سلمي على طريقة غاندي، ونظموا استفتاء عاما أظهر رغبة الألبان في الانفصال عن صربيا، مستعيدين نظام الحكم الذاتي الذي ضمن لهم حرية تامة خلال تاريخهم الطويل»[٢]، تاريخ طويل يسرده لنا الرحبي، حروب وانكسارات، ونزاعات ونضال، وتوالي حكومات، ويكلل هذا الجهد بالحرية التامة بعد استعادة نظام الحكم الذاتي.

وهكذا يركن الرحبي كثيرًا إلى التاريخ؛ ليضيء للقارئ بعض النقاط المجهولة عن المدن أو المعالم أو الشخصيات، فيتابع الاستطلاعات عن قرب، يستمتع ويتعرف على بعض التاريخ أو الحكايا المنسية.

---

(١) تركيا من انشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٦٠- ٦١.

(٢) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدا باتجاه الحقول، ص ٣٩-٤٠.

٤- محكيات تخص السرد اليومي:

يتنقل الرحبي كثيرا بين المدائن والدول، وفي أثناء ترحاله يلازمه قلمه؛ لينقل لنا ما يراه ومايحدث له، وفي هذه الرحلات قد يحدث للكاتب بعض المواقف أو الأحداث التي تخص يوما بعينه، وقد حرص الرحبي على نقل هذه السرديات التي تخص بعض الأيام في استطلاعاته.

ففي براغ يفقد الرحبي تذاكر القطار الخاصة بعائلته، ويكاد يتوه في زحام المحطة قبل أن يصل إلى سلوفاكيا، ويحكي لنا هذا الموقف قائلا: «كانت محطة القطارات ضاجة بالبشر، وأسأل إلى أي رصيف أتجه لينقلني إلى جارتها وشقيقتها السابقة سلوفاكيا؟! لكن الأصابع تشير إلى أمكنة مختلفة، والأرقام الدالة على الأرصفة لا تخبر بالمزيد، والخشية أن يكون القطار قد أزف موعده فيغادر، وأنا الذي لم أصدق أن نصف التذاكر التي ضيعتها (مما تخص عائلتي) سوف أستخرج بدل فاقد عنها بكل سهولة، لكنها طيبة المرأة التشيكية التي قارنت بين أرقام الثلاث التي في يدي، مع الأربعة الضائعة، وخلال دقيقتين كنت أبحث في الزحام عن الرصيف المطلوب»[(١)]، زحام شديد يتخلله ضياع تذاكر استقلال القطار والعبور به إلى سلوفاكيا، ويكاد الرحبي يفقد الأمل في الوصول إلى الرصيف المطلوب، أو في اللحاق بالقطار، وتحل هذه المشكلة الموظفة التشيكية في محطة القطارات؛ فتستخرج له باقي تذاكر عائلته، وترشده إلى الرصيف الذي يتحرك منه إلى سلوفاكيا.

وأثناء زيارة الرحبي لتركيا، وتحديدا مدينة أوزنجول، يلاحظ وفود أهل الخليج التي تكاد تجعل المكان يتحدث بلسان عربي، حتى اللوحات التي تعتلي الواجهات تشير إلى لغة العرب، بل والأكلات التي تقدم في المطاعم هناك، ولكن ماأدهش الكاتب هو ما سرده إلينا قائلًا: «الأكثر إثارة هو ذلك الشاب التركي بلحيته التي أطلقها، وقد ارتدى الغترة والعقال؛ ليقدم القهوة العربية وشاي الكرك مع صيحات يرى أنها بدوية، فيما يغني كل حين مقطع الأغنية الشهيرة "يا نار شبي من ضلوعي حطبك" آوينا إلى مشروباته الساخنة نستريح قليلا من سطوة القهوة التركية، وياللمفارقة لم يكن إلا نصفه الأعلى

(١) براغ أم كل المدن ذات الأبراج الحادة، ص ٥٤- ٥٥.

يمثل به علينا أنه بدوي»[١]، فنظرًا لكثرة ورود أهل الخليج هذه المدينة، يكاد المكان أن يتحول إلى منطقة عربية، ويستغل هذا الجمع العربي رجل تركي، يحاول أن يستميل العرب هناك، فيرتدي ملابسهم، ويحاول أن يقلد لهجتهم وأغنياتهم، ولكنه يرتدي قميصًا يُشبه الجلباب العربيّ، فيظهر بنصفه الأعلى الذي يُطالع به العرب، وكأنّه عربيّ، حفاظًا على قُوْته، ويحتفظ بهويته في باقي ملبسه!.

وفي كوسوفو يلتقي الرحبي بشخص في حافلة لا يعرفه ولا يكاد يفهم لغته، ولكنه يُصرّ على أن يحكي للرحبي قصته وتاريخ بلاده، فيقول: «في حافلة صغيرة التقينا: إبراهيم شعبان ريجيا، من مواليد ١٩٣٩م، وأحد الركاب الذين لا نعرفهم، لكنه يريد أن يتحدَّث عن تاريخه، سنوات عُمره، وتاريخ بلاده التي عاش حروبها، ووثَّق ذلك في كتاب يحمله في يديه، مضى يُحدِّثنا بلغته، وجلس راكب آخر يُترجم لنا القليل مما يقوله العجوز، حتى إذا ساوره الملل انتقل إلى مقعد آخر، وتركنا أمام تدفّق الرجل في استعادته لما عبَرَه من أحداث، فلا نحن نفهم، ولا الرجل يسأم!»[٢]، فإبراهيم لا يكاد يُصيبه الملل، ولا يجد غضاضة في أن يُحدِّث مَن لا يفهم لغته، عن تاريخه وما اجتازه من أحداث، وتاريخ بلدته، ويبدو أنه كان تاريخًا طويلًا تعترضه أحداث جسام، وحروب كثيرة، ربّما بعض البطولات أو الإخفاقات أو حكايات لبعض الشهداء والفدائيين، لم يعرف الرحبي تحديدًا ماذا يحكيه الرجل؟ ولا الذي سطّره في كتابه؟!.

وتتوالى المَحكيّات في استطلاعات الرحبي التي تسرد لنا بعض المواقف، التي صادفته أثناء رحلاته وزياراته لمختلف البلدان.

ثانيًا: الوصف

الوصف لغة: «هو الكشف والإظهار، وعرّفه القدماء بكونه: ذِكْر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات»[٣].

ويُعدّ الوصف قسيمًا للسرد في استطلاعات الرحبي، ويمكن تقسيم الوصف في رحلاته إلى:

---

(١) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٦٤.

(٢) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدًا باتجاه الحقول، ص ٦٥.

(٣) المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٨٨٣.

١- وصف ذاتي (داخلي).

٢- وصف موضوعي (خارجي).

١- الوصف الذاتي (الداخلي):

يلاحظ القارئ لاستطلاعات الرحبي، أنه كان دائمًا يحاول أن ينقل إحساسه وانفعالاته بما يَرى للمتلقّي؛ كي يُشاركه هذه الأحاسيس، ومن هنا تعدَّدت مواضع الوصف الذاتي أو الداخلي في الاستطلاعات.

ويمكن تعريف الوصف الذاتي بأنه: الوصف الذي يُصوِّر مشاعر النفس البشرية ومزاجها وأحوالها وأفكارها.

فيصف لنا الرحبي ذاته وهو يسير في مدينة بيهاتشي في البوسنة، فيقول: «السير إلى مدينة بيهاتشي متعة لا حدود لروحانيتها، وهي تأتلق في كيانك كله، مسار محفوف بالمياه والخضرة والجبال التي تبدو كمزهريات ضخمة ضاجّة بالألوان، التي يُكسبها الخريف حُسنًا عصيًّا على الوصف»(١)، فيحاول أن ينقل للقارئ إحساسه الداخلي بحُسن المدينة، فهي تأتلق في الكيان كله، بما تحويه من جبال واخضرار وحُسن.

وعندما أراد أن يصف للقارئ السوق القديمة في بهلاء العُمانيّة، تَخيَّل مَن عمَّر هذا المكان قبل عهد من الزمان، فيقول: «نصل إلى الجزء غير المُرمَّم، تشدّني أكثر، الأبواب المغلقة على ركام خلفها، أتخيّل مَن لم يعودوا من الباقين، وقد كانوا يجلسون قبل عشرات السنين هنا، أخذوا أحلامهم ومضوا، مفترضًا أنه كانت لديهم أحلام كالتي يعرفها أحفادهم في القرن الميلادي الجديد، وقد مضى أكثر من خُمسه، أتخيَّل الأصابع النحيلة التي قبضت على القفل وسارت في اتجاه واحد، دون أن تتمكّن من العودة مرة أخرى»(٢)، فهو لم يصف السوق كيف كان، ولكنه اجتهد في وصف مشاعره وأحاسيسه عندما رأى تلك الأبواب المغلقة في السوق؛ إذ هيَّجت لديه شُجونًا وبدأ يستحضر حال مَن كان يمتلك تلك الأماكن، ويتساءل عن أحلامهم كيف كانت؟ وهل كانت مثل أحلامنا في العصر الحالي؟ بل ويتخيَّل شخصًا أحكَمَ قفل باب حانوته

(١) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٦٢.

(٢) بهلاء العُمانيّة شواهد الطين تروي سيرة الإنسان والأسطورة، ص ٤٠.

ورحل ولكنّه لم يَعُد إليه ثانية، ولعلّه أراد بذلك أن يُوصل للقارئ رسالة عميقة عن الدنيا برمَّتها، إذ تبدأ بصخب وضجيج، وطموحات وآمال، ثم تغدو إلى زوال.

وفي ألبانيا وتحديدًا في مدينة بيرات، وبالرغم من الحُسن الباذخ الذي يُطوّق المدينة ويتبدَّى في جنباتها، إلّا أنّ الرحبي عندما رأى النهر في هذه المدينة لم يلتفت إلى ما يُضفيه من بهاء وجمال عليها، ولكنه تخيَّل جموع الضحايا والمصابين في هذا النهر جرّاء ما لاقته الدولة كلها من ويلات الحرب، فيقول: «وأتخيَّل الصورة (صورة نهر بيرات) كم من الدماء غسلتها مياه النهر عن أجساد جرحى ومصابين، وكم حملت من ضحايا!»[١]، فلعلّه بهذا الشعور ينقل للقارئ مدى فداحة ما لاقته هذه البلاد من جراء الحرب.

وعندما وصل إلى قلعة بريزرن في كوسوفو، ونظرًا لارتفاعها الشاهق، تدافعت إلى نفس الرحبي مشاعر الزهو والعزّ والانتصار، واستحضر مجد مَن بناها، وتلاحقت الأزمنة في مخيلته، فقال: «كانت الأزمنة حاضرة، أكاد أسمع حوافر الخيل على مشارف البوابة، والرايات ترتفع في سماء سابعة، تطاول مجد إمبراطورية تتسيَّد المكان، وصيحات الجنود بالنصر يعبرون الباب الكبير»[٢]، فقد حاول الرحبي من خلال هذا الوصف، نقل مشهد تصويري كامل للقارئ؛ إذ نكاد نستمع إلى وقع حوافر الخيل، وصيحات الجنود المنتصرة، ونشاهد الرايات المرتفعة تزهو بالنصر، وتشهد بسيادة العثمانيين وسيطرتهم على المكان.

ثم يصف للقارئ فرحه العارم بزيارة مدينة البصرة، فيقول: «أمضي إلى البصرة بفرح، كمَن يذهب لملاقاة حبيبة بعد غياب، هذه الخارجة من رحم التاريخ، المتشظية بإحداثيات الجغرافيا، الساكنة فينا ككيمياء، وتمنح الأحياء دموع صبرها على ما فُجعت به.. وما أكثره»[٣].

ومن خلال هذه النماذج وغيرها، يتبدّى للقارئ، كيف استطاع الرحبي نقل مشاعره وأحاسيسه من خلال الوصف الذاتي، ليس هذا فحسب، بل ربّما شاركه المتلقّي في كثير من هذه الانفعالات والمشاعر.

---

(١) ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، ص ٦٠.

(٢) كوسوفو الطائر الأسود يحلق بعيدًا باتجاه الحقول، ص ٥١ – ٥٢.

(٣) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٣٨.

٢- الوصف الموضوعي (الخارجي):

ويمكن تعريفه بأنه: الوصف الذي ينقل الصورة الخارجية للأشياء، ويمكن تقسيمه من خلال استطلاعات الرحبي إلى:

أ- وصف زمان ب- وصف مكان جـ- وصف مشهد

أ- وصف الزمان:

لم يقتصر الزمان في استطلاعات الرحبي على دوره العام في تحديد مواقيت الرحلات أو التنقل فيها، لكن الزمان لديه اكتسب نكهة خاصة، فقد استطاع أن يلونه، ويصفه بشيات تضفي عليه رونقًا خاصًا.

فنراه يصف ليل إحدى القرى النمساوية وفجرها، قائلا: «حتى إذا حل الليل، لبست القرية غلالة سوداء، لترى المناظر بعين قلبك، وهي تهجع إلى غفوة من الحلم، أما الفجر فله سحره الخاص، تكتشف أن السحاب اشتاق إلى الأرض حينما كنت تغمض عينيك، وعليه أن يعود إلى مكانته الأولى فور أن تخدش حياءه، تاركا قمم الأشجار، ومرتفعا لينسكب ماء حيث لا يروم صبرًا عن اللون الأخضر، يعود إليها بما يجعلها متألقة تحت وهج بصرك وبصيرتك»[١]، فالليل في قرية ويرفرونج النمساوية يتيح للناظر أن يُعمل مخيلته؛ ليتجلى في ذهنه مدى حسن هذا المكان، وحين يؤذن الفجر بانبلاج الليل، يكشف للرائي مدى سحر المكان، وتألقه في حلته الندية بعد انسكاب بعض المطر عليه.

وبصفته رحالة يجوب البلدان من الشرق إلى الغرب، حاول أن يفشي للقارئ سرًّا مهمًّا، وهو التوقيت الأنسب لزيارة أي مدينة، فيقول: «أجمل وقت للقاء بالمدن قبل أن تشرق الشمس، أو قبل أن تغرب.. في الصباح تجدها ما زالت كصبية تفتح عينيها في مطلع نهار جميل، ندية وطازجة، وقبل أن يحل المساء تكون كفاتنة تستعد للاحتفاء بسهرة فرح.. تترقبك لتشاركها ألق ليلها، وقد ارتدت أثوابها وخامة قماشها، وجسدها القادر على أن يكون بمقاس الفتنة التي تنشدها»[٢]، وكأنها وصية رحالة مجرب، ينقل تجربته

(١)النمسا تبتسم في ليالي الأنس، ص ٥٤.

(٢) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٣٩.

لكل مريدي السفر والترحال، فإذا أردت السفر أيها القارئ، فعليك بالوصول إلى المدينة إما في الصباح الباكر أو قبيل غروب الشمس، فهما وقتان لهما نكهة خاصة، ومذاق مميز في زيارات المدن.

ولو تساءل القراء، وقالوا: نزور المدن في الصباح الباكر أو قبيل الغروب، ولكن في أي فصل؟ تأتي إجابة الرحبي واضحة، من خلال استطلاعه في البوسنة، فيقول: «ما أجمل أن تلتقي مدينة حينما يلتقيها الخريف، فالألوان صارخة بالمعنى، معنى أن ترى ألوانا تسحب روحك من كل غبارها؛ لتهدي إليها باقة زهور بحجم جبال، تختال حسنا على جسد متسع كمدينة»(١)، فقد أعجب الرحبي بالمنظر البهي، وتعجب من كثرة ألوان الزهور الممتدة على الجبال التي تحيط بالمدينة، وكأنها تهدي البوسنة ثوبا من البهاء والحسن، تختال فيه وتُدِلُّ به على باقي المدن.

ب- وصف المكان :

يحتل المكان نسقًا بارزًا في استطلاعات الرحبي، فما الاستطلاع إلا رحلة إلى دولة أو مدينة، أي: (مكان) بها العديد من الأمكنة التي يُمكن أن تزار، ويوصف ما بها من علامات تتميز عن باقي الأماكن والمزارات.

فنجده مثلًا يصف مدينة القاهرة وهو يغادرها، ويتطلع إليها من نافذة الطائرة قائلا: «من نافذة الطائرة كانت القاهرة تعوم في النور، تبدو شوارعها غارقة في الزحام، جميلة في الليل، حيث لا يظهر سوى الضوء يتناثر كالنجوم في سماء هي الأرض، ونحن في سمائنا نصعد حتى تتلاشى الأشياء هناك في السديم الفاصل بين أرضنا، وخطوط تسير عليها الطائرات، بين نهار دخلنا بوابته إلى مدينة الألف مئذنة، وليل نغادر فيه مدينة لا تنام»(٢)، فعلى حد وصف الرحبي تبدو القاهرة وكأنها تسبح في بحر من نور، من كثرة أضوائها، ومن حيوية شوارعها وممراتها، فهي مدينة تتميز بزخم عال من المآذن والبشر، فكأنها لا تنام.

ويصف أوزنجول في تركيا؛ إذ يأخذ بتلابيبه جمال المكان، فبعد الحديث عن الزمان

(١) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٣٨.

(٢) بين قاهرة المعز ومدينة الإسكندر كل الطرق تؤدي إلى مصر، ص ٦٥.

الذي استغرقته رحلته من إسطنبول إلى طرابزون، يصف الطريق إلى أوزنجول، ثم يتجه إلى وصفها فيقول: «هبطنا في مطار طرابزون في أقل من ساعتين من الطيران بينها وإسطنبول، ثم ما يقارب من ذلك الوقت لنعبر نحو ١٠٠ كيلومترا نسيرها عبر تلال وجبال وأنفاق، للوصول إلى هذه البقعة الرائقة خلف تلك الجبال المتدثرة بأشجارها، وكأن كلمة جبل تكتسب معنى آخر عما نعرفه في أذهاننا، حيث الصخور وحدها علامة تلك الشوامخ، بينما في أوزنجول تلة ضخمة من الأشجار تلتقي أوراقها بالسحب والضباب المتكاثف، وكأنها في حالة إقناع دائم ليهبط الغيم إلى متناول أيدي البشر، فيمرحون.. ويفرحون بأنهم قبضوا على ما كانوا يحسونه عاليا وغاليا.. البيوت الخشبية والفنادق المقامة بالخشب وكذلك المطاعم، وأجمل من كل ذلك تلك البحيرة الأنيقة وانعكاس المسجد عليها... أتساءل: لو لم يكن المسجد هناك هل بقي كل ذلك الجمال حيا كما يبدو عليه في آلاف الصور الملتقطة له يوميا؟!»[(١)]، فالطبيعة خلابة في هذا المكان، ومن فرط حسنها أقنعت الجبال بالتخلي عن صلادتها وصلابتها، وكستها حلة من الأشجار الباسقات، التي تكاد تطاول عنان السماء، فتقرب الغيم للبشر، وتجعله في متناول أيديهم، وتطوف عيناه بباقي المشهد؛ حيث المنازل والفنادق والمطاعم الخشبية، وكأنها أبت إلا أن تتواءم مع طبيعة المكان، وتكتمل اللوحة الفنية بوجود الماء، متمثلا في تلك البحيرة التي تعكس صورة المسجد عليها، فيضيف للجمال جلالًا.

وتراه يصف كورنيش البصرة ليلًا، وما يحمله من مفارقات قائلًا: «كلما حل الليل يزداد المكان جمالا يملأ الكورنيش بالحياة حتى تزدحم الخطوات.. شباب تراهم الأكثرية، تشعر بحيويتهم وهم يتأنقون كأنما هم ليسوا من هذه المدينة، التي تبدو منهكة في معمارها، وما تركته الحروب من آثار على ملامحها، وجوه أنيقة تقرأ فيها إشراقة الحياة، وهي تحث الخطى على اتساع كورنيش الشط بحثًا عن حياة.. حياة تنتصر للسلام على حساب رائحة البارود، وصلف الجنرالات، وفساد السياسيين»[(٢)]، فبالرغم

(١) تركيا من أنشودة البوسفور إلى إيقاع بحيرة الصنوبر، ص ٦٢.

(٢) الدنيا بصرة على شط العرب، ص ٤٦.

من أن البصرة تعاني من ويلات الحرب، إلا أن شبابها يتطلعون إلى حياة جديدة، تنبض بالحب والسلام، مهما بدت بعيدة المنال.

جـ- وصف المشهد:

حاول الرحبي في استطلاعاته وصف بعض المشاهد التي مرت به ومر بها، وقد يتداخل في هذا الوصف وصف المكان، ووصف الحالة الشعورية؛ ليصل الكاتب إلى تقريب الموقف أو المشهد إلى ذهن المتلقي.

فنراه يصف مشهد زراعة الأرز في بعض قرى فيتنام، قائلًا: «كأن مزارعو الأرز يقطفون أولى آشعة الشمس فجرا، وهم يحرثون أراضيهم التي تشبه أحواض ماء ضخمة، فيما تتحرك ثيران الحراثة على أرض موحلة، وكان اللافت مشهد بعض القبور المغروسة في الحقل كشجرة لا يمكن اجتثاثها، حيث الموت ترويه مياه الحياة، وتظله خضرتها.. في أشد حالات العناق مدعاة للتأمل»(١)، فلم يصف هنا الرحبي المكان ولا الزمان، ولكنه حاول وصف كيفية زراعة الأرز في إحدى القرى الفيتنامية، وإن لفت نظره وجود بعض القبور في الحقول، ولكنه لم يحدد مواقعها ولا هيئات بنائها، ولكنه وصف تكميلي للمشهد؛ حيث احتل زاوية منه، ودعا إلى تأمل الكاتب وتفكره.

ونراه في البوسنة يصف مشهد انحسار الماء عن نهر ميلاسكا في الخريف، قائلا: «أتتبع مجرى نهر ميلاسكا، يجري بضعف ووهن، تجتهد بعض المنابع أن تهديه بعض القوة بين مسافة وأخرى، لكنه ليس في موسم حيويته، يعيش زمنه الخريفي قبل أن تمده أمطار الشتاء والثلوج بعنفوان يعرفه جيدا»(٢).

فمن شدة انحسار الماء عن النهر وصفه الرحبي بالضعف والوهن، وتحاول بعض المنابع أن تنقذه من هذا الوهن، وأن تمده ببعض الماء ليكتسب بعض القوة، لكنه ليس زمان المد، حيث فصل الخريف الذي يأبى على النهر أن يتدفق بحيوية ونشاط.

ثم يصف انحدار الماء في شلال بوجوف في مدينة بيرات، قائلا: «يتساقط الماء الهاوي من الأعلى على الماء أسفله، فكأنما يكتسي الزبرجد حياة متجددة، فيسير

(١) فيتنام معزوفة البحر والضباب، ص ٥٠.

(٢) البوسنة بلد الدم والعسل ترميم ذاكرة الحرب بالسياحة، ص ٤١.

شريان الحياة على وادي أوسومي، فتعيش أيها الزائر عزلتك الهادئة، فالمياه نقية، والطبيعة آسرة، والروح أكثر من الجسد.. مسافرة»[١].

يتهاوى الماء من علٍ إلى أسفل، فيكسب شريان الماء على وادي أوسومي لونا أخضر بهيا كلون الزبرجد، فيستمتع الناظر بالطبيعة، وسحرها الآسر الذي يأخذ بتلابيب الروح!!.

(١) ألبانيا حكايات التاريخ المنسية، ص ٦١.

الخاتمة

بعد هذه الرحلة القصيرة التي طوَّفنا خلالها حول بعض استطلاعات الرحبي، أمكننا التوصل إلى بعض النتائج والتوصيات فيما يلي:

أولاً: النتائج:

١- تعدد رحلات الرحبي، واتساع فضائها، فكانت معينًا ثرًّا أتاح له رصد كمٍّ هائلٍ من الأماكن، والعادات والتقاليد المتعلقة بأهل تلك الأماكن.

٢- كان الرحبي موضوعيًّا في تصوير الآخر، فلم ينتقص منه، بل أنصفه في جل رحلاته.

٣- دقة تصوير الرحبي للأماكن التي زارها، مما عمل على خلق أجواء مشتركة بينه وبين القارئ؛ إذ غدا وكأنه يتفحص مع الكاتب زوايا المكان، ويرى أبعاده ومحتوياته.

٤- حاول الرحبي تسليط الضوء على بعض الصور الثقافية لدى الشعوب التي زارها، مما مكنه من رصد بعض الأنساق، وبيان الأطر الخاصة بها.

٥- ضمت استطلاعات الرحبي الكثير من المعلومات التاريخية والجغرافية، فغدت بذلك مرجعًا يمكن الرجوع إليه؛ لاستقاء بعض المعلومات والمعارف.

٦- شكل السرد والوصف ركنين أساسين، اتكأ عليهما الرحبي في بناء رحلاته.

ثانيا: التوصيات:

١- دراسة استطلاعات العربي بين محمد المخزنجي، ومحمد بن سيف الرحبي، فكلاهما له باع في الإبداع الأدبي، مما سينعكس على قلميهما في تناول الاستطلاع.

٢- دراسة استطلاعات العربي الخاصة بالهند، فقد صدرت ثلاثة كتب عن العربي، تضم فصولًا منها رحلات معاصرة إلى الهند، وهي: آسيا بعيون العربي، وجنوبًا وشرقًا رحلات ورؤى، ونهر على سفر.

والحمد لله في البدء والختام،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر:

١- مجلة العربي، الأعداد: ٧٠٧، ٧١١، ٧٣٧، ٧٣٩، ٧٤٥، ٧٥٣، ٧٥٧، ٧٦٣، ٧٦٦، ٧٦٩، ٧٧٣.

ثانيا: المراجع:

أولاً: الكتب:

١- تقنيات الفن القصصي عبر الراوي والحاكي، أحمد درويش، الشركة المصرية العالمية للنشر(لونجمان)، ط١، ١٩٩٨م.

٢- الرحلة في الأدب العربي (التجنيس- آليات الكتابة- خطاب المتخيل)، شعيب حليفي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة كتابات نقدية، أبريل، ٢٠٠٢م.

٣- صانع الأسطورة في الشعر العربي الحديث، عبد الناصر حسن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠١٦م.

٤- معجم مصطلحات الأدب، مجمع اللغة العربية، ج٢، القاهرة، ٢٠١٤م.

٥- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة- كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٦- المعجم المفصل في الأدب، محمد التونجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٣م.

٧- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ثانيا: الدوريات والمجلات:

١- دراسة الصورة في الأدب المقارن، زهرة مزوني، مجلة الباحث، مج٨،ع١٦، ٢٠١٦م.

٢- السرد الرحلي من أدب الرحلة إلى الاستطلاع الصحفي، خليفة قعيد، جامعة الوادي، مج٧، ع١، ٢٠١٢م.

٣- الصورولوجيا في السرد الروائي عند مهدي عيسى الصقر، نوافل يونس الحمداني، مجلة ديالي، ع٥٥، ٢٠٢٠- ٢٠٢١م.

ثالثا:المواقع الإلكترونية:

١- موقع التبراة (https://altibrah.ae/author/1859).

٣- موقع جائزة كتارا للرواية العربية (https://kataranovels.com/novelist/).

٣- موقع ويكبيديا (https://ar.wikipedia.org/wiki/).